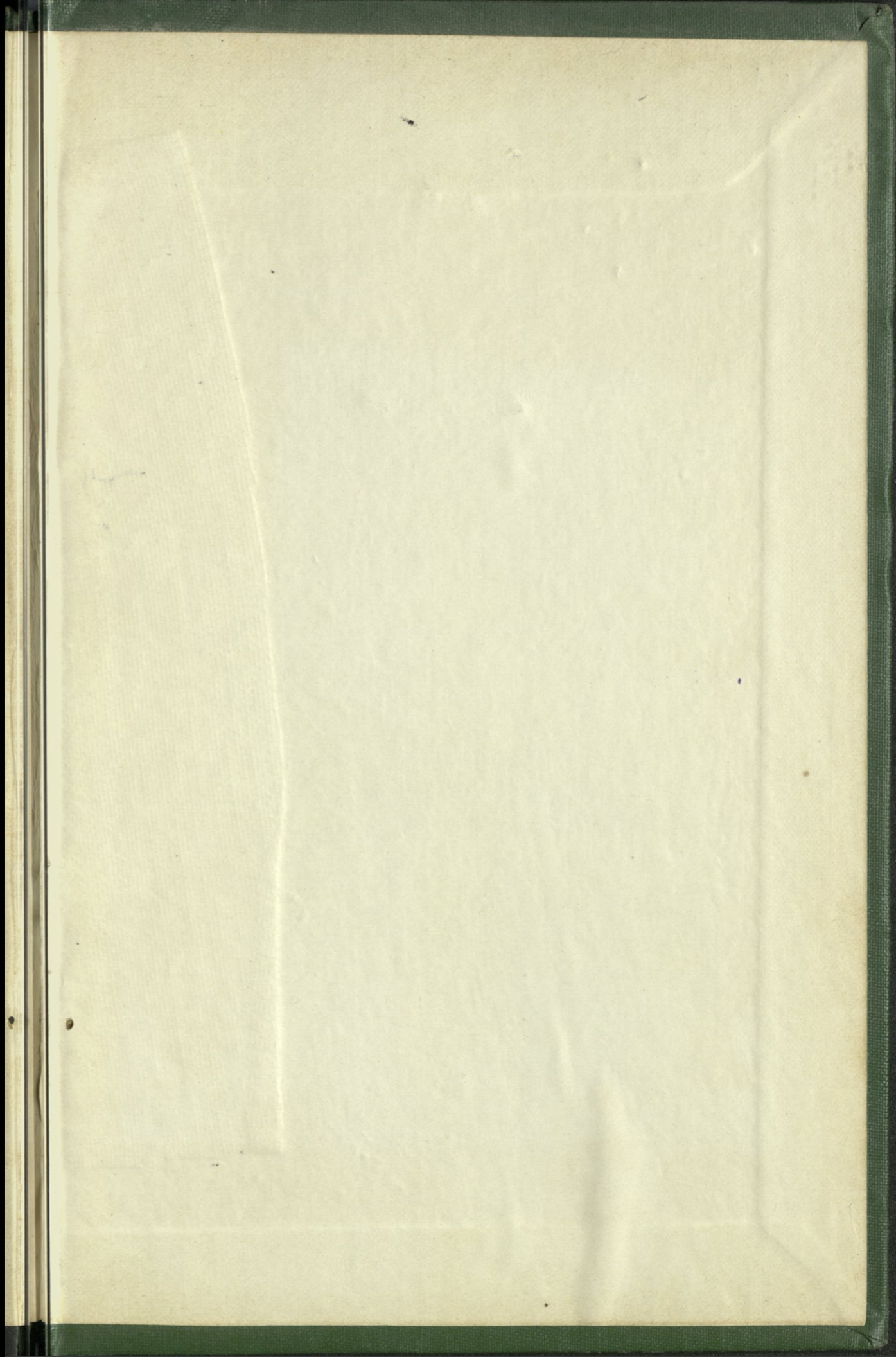


القاضي

الحديث الامسيات



89
K

cat. 6 oct. 53

لقدمة المؤلف الى
جاءه بيروت لا يتركه
في ٢٤ حزيران ١٩٥٢

طه محمد القاضي



892.7408
Q612aH
C.1

الجهاد في الأمسيات

(الطبعة الاولى)

١٩٥٣ - ١٣٧٢

بيروت - لبنان

المكتب التجاري

للطباعة والتوزيع والنشر

cat. 6 oct. 53

للمؤلف :

- ١ - الحب والجمال .
- ٢ - احاديث الأمسيات .
- ٣ - على مسرح الحياة - (تحت الطبع) .



رسم المؤلف

اهداء الكتاب

الى من ستستسيغ اذواقهم هذه الأحاديث فيقبلون على مطالعتها، والى
من ستتنفر اذواقهم من هذه الأحاديث فيعرضون عن قراءتها اسوق
هذه الأحاديث .

الى من سيقدرها في هذه الأحاديث ويذمونها محدثها ، والى من
سيقدرها هذه الأحاديث حق قدرها ويمدحون محدثها أسوق هذه الأحاديث .
الى من يسرني اقبالهم على هذه الأحاديث والى من لا يسؤني أزوارهم
عنها اسوق هذه الأحاديث .

الى الذين يجدون ما يقرأون والى الذين لا يجدون ما يقرأون اسوق
هذه الأحاديث .

الى الذين يقرأون والى الذين لا يقرأون اسوق هذه الأحاديث .
الى جهابذة السياسة الذين يلعبون بمقدرات الامة العربية ومثلوا ادواراً
رئيسية في مأساة فلسطين اسوق هذه الأحاديث .

الى ارباب الفلسفة وأئمة الاصلاح الاجتماعي ورجال الأدب وعلماء
التاريخ اسوق هذه الأحاديث .

الى الرجال والنساء على حد سواء اسوق هذه الأحاديث .
الى هؤلاء جميعاً أسوق هذه الأحاديث واهديهم كتاب احاديث
الأمسيات .

طه محمد القاضي

بيروت في ٥ رمضان ١٣٧٢ هـ ١٨ ايار ١٩٥٣ م

تمهيد

ايها القاريء الكريم



كنا فاجأناك على حين غرة بيا كورة انتاجنا الأدبي (الحب والجمال
ومقالات اخرى) وكان هذا الكتاب وليد ساعات قليلة في تحضير مواده
ونسخها واصلاح الاخطاء المطبعية فيه وطبعه . ولم نكن نفكر في اصدار
هذا الكتاب بهذا الشكل وبهذا الحجم الهزيل في الآونة الحاضرة . ولكننا
اضطررنا الى اصداره كما هو بين يديك وبهذه السرعة بمناسبة زيارة سمو
الامير سعود آل سعود ولي عهد المملكة العربية السعودية الى الجمهورية
البنانية أملاً في ان يَمُنَّ علينا سموه بمبلغ ضئيل من المال لنشق طريقنا في
الحياة الادبية وخدمة الناشئة . وقد صدرنا كتابنا بكلمة اهدينا الكتاب
فيها الى سمو الامير سعود آل سعود وزينا الكتاب برسمه . ولكن سمو
الامير لم يمن علينا بما انعم الله عليه من اموال طائلة تغص بها خزائنه لا
بقليل ولا بكثير . فمئنا بخيبة امل شديدة وذهبت آمالنا كما يذهب الهباء
في مهب الريح . ولقد عرضنا اهداء الكتاب الى سمو الامير سعود آل
سعود الى نقد لاذع مريروا تهمة النقد والقراء اننا نحترف الادب كتجارة

والواقع أننا نربأً بالأدب أن يكون تجارة ولا نسمح لأنفسنا الاتجار به ،
فالادب فوق كل تجارة وله رسالته السامية في توجيه الانسانية الى الشاطئ
الميمون . ويزعم الرجعيون أننا خرجنا عن الأدب والاحتشام في سياق هذا
الكتاب فالى هؤلاء نقول :

(اننا نكتب لجمهور كبير من القراء لا لفئة قليلة . اننا نكتب للطبقات
المتقفة الواعية التقدمية لا الى دعاة الرجعية والجهل والركود . وبكلمة موجزة
نقول لهؤلاء ايضاً اننا نكتب لذوي الاذواق السليمة لا الى ذوي الاذواق
المريضة وان ارضاء الناس غاية لا تدرك .)

و بعد ايها القاريء الكريم فاننا فاجأناك بالامس القريب بكتابنا
(الحب والجمال ومقالات اخرى) وهما نحن نقاجئك بكتابنا (احاديث
الأمسيات) . وليست ايها القاريء الكريم احاديث الامسيات احاديث
من محض الخيال ولكنها احاديث من صميم الواقع عرضت لي اثناء دراستي
في كلية المقاصد الاسلامية في الحاضرة اللبنانية وفي جامعة القديس يوسف
للآباء اليسوعيين في بيروت . ولست ازعم ايها القاريء الكريم ان هذه
الاحاديث وقعت لي في زمن واحد وفي مكان واحد ولكنها احاديث
عرضت لي في اوقات متفرقة وفي اماكن مختلفة .

وخلاصة القول ايها القاريء الكريم ان كتاب (احاديث الامسيات)
الذي هو بين يديك الآن اشبه بستان جميل او أشبه بمنزلة ممتع مريح
يحتوي على مختلف الازهار والرياحين والورود . فتعال معي ايها القاريء
الكريم لنقرأ الباب الاول من هذا الكتاب وندخل في جو من السياسة

العربية الواقعية ونقف على واقع امتنا وعلاقاتها بالدول الاستعمارية . ثم
ننتقل الى مأساة فلسطين ، ومن ثم الى الجامعة العربية واسباب اخفاقها في
انقاذ فلسطين ، ومنها الى ذكرى منتصف ايار هذه الذكرى الاليمة التي لا
ينساها الاحرار من امتنا ان وجد في امتنا احرار .

ولننتقل بك الآن ايها القارئ الكريم الى الباب الثاني من الكتاب
لنقف بنفسك على محاولة الفارابي في التوفيق بين الحكمة والشريعة
ولترى أأخقق الفارابي في محاولته هذه ام وفق . واذا فرغت من مطالعة
هذا الفصل فتعال معي الى الفصل الذي يليه لتطلع على مقارنة بين الفلسفة
الميتافيزية الروحية والفلسفة المادية العلمية ولنرى نقاط الخلاف بينهما . ثم
ننتقل بعد ذلك لنقرأ فصلاً قصيراً يتناول الاشتراكية في الاسلام وهل في
الاسلام اشتراكية . وما دمت ايها القارئ الكريم قد اطلمت على هذا
كله فليبدأ بنا الى الباب الثالث من الكتاب لنقف في الفصل الاول منه
على أثر السينما في الناشئة ولنرى مضارها ومنافعها ثم ننتقل بعد ذلك الى
فصل يعالج مشكلة تعليم المرأة العربية وضرورة هذا التعليم الملحة . وتو
ننتقل من هذا الفصل الى فصل آخر يعالج مشاكل الزواج ويرسم لك
الأسس الضرورية للزواج الموفق .

اما الآن ايها القارئ الكريم وقد انتهينا من مطالعة الباب الثالث
من الكتاب فتعال معي الى الباب الرابع منه لنقوم بجولة في الشعر العربي
ولاسيما الغزلي منه ولنرى ايها اخلص للآخر الرجل ام المرأة ولنقف
بانفسنا على اثر الثقافة الاستعمارية في نفوس ناشئتنا وكيف ان هذه الناشئة

تجهل تاريخها ثم تعال معي لننتقل الى الباب الآخر من هذا الكتاب لنرى
أثر الحضارة العربية في حضارات الامم الاخرى رغم تجاهل المغرضين
لهذه الحضارة .

وثمة كلمة اود أن اقولها لك أيها القارئ الكريم وهي انني
اود ان اكون قد وفقت الى خدمتك وارجو ان لا تمنني اذا أطلت الحديث.
وما دام النقد الايجابي وسيلة ناجعة للإصلاح فنحن نرحب بكل نقد
ايجابي يوجه الينا على ان تتوفر في حضرات النقاد والقراء الكرام النية
الطيبة والذوق السليم وعدم التحيز الى الكاتب والتعصب عليه .

ونذكر القارئ اننا جرينا هذا على طريقتنا في كتابنا السابق «الحب
والجمال» فسقنا هذه الأحاديث سياقاً قصصياً على بعدها من الاسلوب
القصصي وقربها من أسلوب البحث . وقد حاولنا ان نسوق احاديث
الامسيات بلغة سهلة ميسورة لا غرابة فيها ولا تعقيد لتكون في متناول
الجميع .

طه محمد القاضي

بيروت في ٥ رمضان سنة ١٣٧٢ هـ ١٨ أيار سنة ١٩٥٣ م

الباب الأول

احاديث سياسية

الفصل الاول

الامة العربية والدول الاستعمارية



قال جمال لصديقنا طريف : « حدثنا يا طريف عن الامة العربية وكفاحها ضد الدول الاستعمارية » فقال صديقنا طريف : « دع هذه المسألة يا جمال لجهابذة السياسة » ولكن جليس صديقنا طريف الح عليه وزاد في الالحاح . فاستجاب صديقنا طريف لرغبة محدثه جمال فقال :

« لقد استكان الشرق العربي يا جمال واذعن للرقاد اهله من شدة النصب ، وانطفأت انوار العلم وانتشرت ألوية الظلام ، وتكاثفت طبقات الجهل وغمرت الشرق العربي العزيز سحب الاستسلام واستولت عليه موجة من الاطمئنان بعد ان أضناه الجهاد والاستشهاد في سبيل الذود عن وطنه ضد غارات المغول والحملات الصليبية وفي سبيل التحرر من قيود العبودية التي صفدته بها الامبراطورية العثمانية واوروبا الاستعمارية » فقال جمال « هذا ما كان من امر الشرق العربي يا طريف فهل لك ان تحدثنا

عمّا كان من امر الغرب ؟ » فقال صديقنا طريف « اما الغرب يا جمال
 فقد استيقظ وتوحدت غاياته فسار باسطاً جناحي الظلم والارهاق مكتسحاً
 الشرق العربي مدججاً بالسلاح فآخن الشرق العربي جراحاً بسلاحه
 فسارع العرب للدفاع عن حقهم المسلوب وهبوا للنضال عن حريتهم
 المغتصبة فالفوا انفسهم مكبلين بالاغلال والقيود وخيل لاوروبا ان
 الشعب العربي اصبح سجيناً ، فتصرفت به تصرف المالك بملكه وقد
 تجسم الخطر العظيم فدوت في جميع ارجاء الاقطار العربية اصوات ملوك
 العرب وقادة الدين والعلم الوطنيين كصوت جمال الدين الافغاني
 وعراقي ومحمد عبده والحسين وفيصل وزغلول والعظمة وغيرهم ممن تتأجج
 في صدورهم الغيرة الوطنية وتجيش في نفوسهم العقيدة الصادقة . فاستعذب
 العرب يا جمال نداءهم وملكت عليهم نغمته السحرية المشاعر والاحساس
 فالتفوا حولهم يناشدون الله ان يكتب لاهل دينه النجاة والنصر وسار
 العرب في نهضتهم المباركة يفدون بلادهم بأرواحهم ودمائهم ولكن
 على غير هدى ولا بصيرة . تارة بأسم العلوية أو القينية وطوراً باسم
 الهاشمية حتى سدد الله منهم الخطى في الآونة الأخيرة فتصافحت الايدي
 وتوحدت الاهداف فضمنتنا في الجهاد دوحه الاسلام ، وفي الاحساس
 وحدة العروبة وفي الألم نيل الاستقلال فامطنا اللثام ونزعنا عن اليد
 الحديدية القفاز الحريزي لنشهد الصراع بين الحرية والعبودية والكفاح
 بين الموت والحياة دفاعاً عن عقيدة ونضالاً عن حق وايماناً بهذه العقيدة
 وبراً بهذا الحق . فساهمت يا جمال طبقات الشعب في هذا الشعور وفي هذا

التفكير استمساكاً بهما وسرنا جميعاً يمين المجاهد واطمئناناً المؤمن
تستشرف نفوسنا الكفاح والجهاد في ميادين التهذيب والاقتصاد والسياسة
وقد ثبت للعرب ان الدولة لا تكون سليمة البنيان راسخة الاركان الا
بالمعارف والجنديّة فشيّدنا للعلم دوراً وأقننا للاشتراع مجالساً . اما الجنديّة
وعليها تعتمد الأمم في صيانة الارواح داخل البلاد وخارجها فلم يتمكن
العرب حتى اليوم ان يظفروا بهذه النعمة .

وأما العلوم والمعارف يا جمال فمصر مركز الثقافة العربيّة ففي جامعاتها
الراقية يستولد الاتجاه الفكري في العالم العربي ومن ازهرها تشع أنوار
الآيمان فكاتب مطابعها تستولي على الخواطر والاذهان فالبلاد العربيّة ترنو
بأنظارها الى القاهرة اعجاباً تستلمها الرشاد وتستوحىها الجهاد .

وما كاد صديقنا طريف ينتهي من حديثه حتى عاجله جمال فقَالَ :
« وما رأيك يا طريف في اوضاع الاقطار العربيّة الحاضرة ؟ » فقال
صديقنا طريف : « ان بعض الاقطار العربيّة يا جمال تنعم باستقلال
سياسي تام كسوريا ولبنان التي لا تربطها بالتقيّدات الدوليّة والمعاهدات
العسكريّة اية رابطة . على العكس مع مصر والعراق وشرقي الاردن وسواها
من الاقطار العربيّة الاخرى التي تنعم بشبه استقلال سياسي وترزح تحت
نير الاستعمار وما يتبعه من معاهدات عسكريّة وتقيّدات غرضها قيد
الحرية والنيل من كرامة تلك الاقطار . على ان تلك المعاهدات والتقيّدات
الدوليّة تتفاوت فهي مجحفة في مصر والعراق ومرزقة في شرقي الاردن .
ولا يفوتني يا جمال ان أقول لك ان الاستعمار الأوروبي البغيض اخذ

يوطد اقدمه في المغرب العربي منذ زمن غير يسير . وأن أخواننا العرب
في المغرب يسامون أسوأ العذاب في عقر دارهم ويخيم على رؤوسهم
كل كل الاستعمار الفرنسي بأشنع صورته وأقسى ألوانه وأعنف أنواعه .
وتبغى فرنسا الاستعمارية من وراء ذلك أن تجعل من المغرب العربي فرنسا
ثانية . لكنها والله الحمد لم تنجح في مهمتها ولن تحقق أهدافها العاشمة ما
دام الدم العربي يجري في عروق أهل المغرب وما داموا يفيضون بالحيوية
ويستمسكون بعروبتهم ووطنيتهم على الرغم من كابوس الظلم والارهاق
الجاثم على صدورهم ذلك الكابوس الذي ينافي « شرعة حقوق الإنسان »
وينادي له جبين الإنسانية خجلاً . ذلك الكابوس الذي تسلطه فرنسا
على حرية الشعوب وتسخره لكبت حرية الفكر في القرن العشرين
عصر الحرية والتجرد ، وعصر المدنية والتقدم .

ولما فرغ صديقنا طريف من كلامه سأله محدثه جمال عن الأسباب
التي أدت إلى انهيار فلسطين وانهزام جيوش العرب أمام العصابات
الصهيونية . وما كاد صديقنا طريف يسمع هذه العبارة حتى تصدع لها
قلبه وانفطر لهولها كبده وقال : « لا شك يا جمال أنك تعلم وغيرك يعلم أن
فلسطين الجريحة ناضلت عن كيانها وذادت عن حوضها بسنوات طويلة مدة
ثلث قرن أو تزيد كانت خلالها في كفاح دائم ونضال مستمر لا ضد
الصهيونية العالمية فحسب بل ضد الاستعمار البريطاني أيضاً . وهما هي
الثورات التي اندلعت نيرانها في فلسطين خلال ربع قرن ضد الظلم والطغيان
تشهد ببطولة الشعب الفلسطيني وبسالته . وإن لم تكن الثورات يا جمال

تنتهي بالفوز والنصر فقد علمت الانكليز البغاة درساً في الكفاح الشعبي
وارغمتهم على الاعتراف بحقّ عرب فلسطين بالحرية والاستقلال وفرضت
احترام هذا الشعب المناضل على بريطانيا رغم انوف ساستها . « ثم قال
صديقنا طريف « لا ريب يا جمال في انّ النضال الشعبي في فلسطين كان
ينقصه في الدرجة الاولى النظام والخبرة وفي الدرجة الثانية العناد الحربي
والقيادة الحكيمة . اعني بقولي هذا يا جمال ان الثورات التي كانت تشتعل
في فلسطين بين الفينة والفينة كانت مُرَجَلَةً وكان بينها وبين من ترعّموها
هوةٌ سحيقة . وكما كان يا جمال ينقص تلك الثورات الخبرة والتعقل فقد
كان ينقص تلك الزعامة الحنكة والدراية وبعد النظر . وارى يا جمال
ان تلك الزعامة كانت تضع مصالحها الشخصية ومآربها الخاصة قبل مصالح
واهداف الشعب والوطن . وكانت (النتيجة) النتيجة الحتمية يا جمال لما
أوجزته لك في هذا الحديث القصير ان اغتصبت فلسطين عنوة وشرّد
اهلها هنا وهناك وحل مكانهم الصهاينة حثالة شعوب الارض . إستجابة
لرغبة الديموقراطيات المدعيات ونتيجة للتفكك والتخاذل والخيانات التي
ولدتها بذور الشقاق التي بذرتها بريطانيا واعوانها من العرب وغير العرب
بين صفوف الامة العربية . وهنا تنفس جمال الصعداء وارسل زفرات عميقة
خرجت من اعماق قلبه وقال : « حدثنا يا طريف عن المملكة العربية
السعودية واليمن السعيدة وسائر الامارات العربية . » فاخذت صديقنا
طريف روعة الحديث والحديث ذو شجون وراح يقصّ على مسامع
محدثه جمال ما طلب اليه من حديث فقال : « كان يا جمال للحركة الوهابية

التي ظهرت في الجزيرة العربية فوائد جمّة اذ خلّصت الاسلام ممّا علق
به من شعوزات ليست من جوهره في شيء . ولكن الجهل والفقر والمرض
لا تزال متفشية بين عرب الجزيرة على الرغم من تدفق الذهب الاسود في
ديارهم وغيره من الثروات الطبيعية التي تدرّ على المسؤولين في الجزيرة
اموالاً طائلة . ولكن ولاية الشأن في الجزيرة يا جمال يتصرفون بهذه
الاموال تصرفاً لا يقبله الله والقانون وليست هذه الاموال ملكاً لهم ولكنها
من حق الشعب ويجب ان تنفق في سبيل مصلحة الشعب العامة فترصد
لانشاء المدارس والمستشفيات ودور الايتام وملاجيء العجزة وسواها من
سبل الترفيه عن كاهل الشعب ورفع مستواه الثقافي والاقتصادي والصحي .
ويبدو لي يا جمال ان من بأيديهم زمام الامر في الجزيرة يضرّبون صفحاً
عن مثل هذه المشاريع حاجة في نفس يعقوب . ولا تنس يا جمال الضربة
التي سدّدها ملك الجزيرة عندما كان مفتاح قضية فلسطين في قبضتيه ولا
يزال هذا المفتاح بين يديه . فلو شاء ملك الجزيرة ان يحل قضية فلسطين
لحلها ولما كان ما كان . نعم يا جمال لو اوقف عاهل الجزيرة سيل النفط
عن الولايات المتحدة الاميركية لانقلبت السياسة الاميركية في ما يتعلق
بفلسطين خاصة وبالشرق العربي عامة رأساً على عقب . ولكن عاهل
الجزيرة لم يشأ ان يفعل شيئاً من هذا ولعله كان في سكرة من تدفق الدولار
على خزائنه . وكان من المستبعد يا جمال ان يقف سيف الدولار عن حاكم
الجزيرة لان اميركا تعمل جاهدة على جعل المملكة العربية السعودية منطقة
نفوذ لها وهو اسم للاستعمار الجديد استحدثته السياسة في القرن العشرين .

ولان حاجة اميركا الى النفط اكثر من حاجتها الى الدولار . ولو ان عاهل
الجزيرة يا جمال استخدم سلاحه الناجع لحل قضية فلسطين لأكتسب
محبة الامة العربية واجلاها دون ان يقف سيل الدولار البراق عن خزائنه «
» واما اليمن يا جمال فلا تزال متأخرة في ميادين السياسة والثقافة والاقتصاد
والاجتماع والادب والفن وهي معقل للاحرار واتون الحرية الفكر . «
» ولعلك يا جمال على يقين مما تلاقيه سائر الامارات العربية من ظلم وطفغان
الاستعمار البريطاني هذا الاستعمار الذي يعمل على خنق حريات الشعوب
واستنزاف ثرواتها لحسابه الخاص وهو يتشدق في اروقة الامم المتحدة
(بشرة حقوق الانسان) . «

وما ان أنتهى صديقنا طريف من حديثه حتى بادره محدثه جمال
وقال : « ما رأيك يا طريف في الحكم الملكي والوحدة العربية ؟ وهل
تحبذ الوحدة ام الاتحاد . « فاستجاب صديقنا طريف لرغبة محدثه جمال
وراح يسرد على مسامعه رأيه في هذه المسألة الخطيرة فقال :

« لا يمكن ان تتم الوحدة او يتحقق الاتحاد يا جمال الا بعد ان
يتحرر الوطن العربي الكبير من ربة الاستعمار ومن المعاهدات والتقييدات
التي لا يفيد منها الا المستعمر في اغلب الاحيان . ونظراً لخروج اسرائيل
الى حيز الوجود واحتلالها مركزاً حروباً هاماً في قلب الشرق العربي
ووقوفها حجر عثرة في سبيل المواصلات البرية بين الديار الشامية ووادي
النيل فاني احبذ يا جمال الاتحاد وارى ان هذا الاتحاد اقرب الى الواقع
منه الى الوحدة في الآونة الحاضرة . على ان يكون هذا الاتحاد يا جمال

كخطوة أولى للوحدة العربية الكبرى. وأما نظام الحكم الملكي يا جمال فقد أثبتت الأيام والتجارب انه يحد من حريات الشعوب ويعيق تقدمها وازدهارها. وأرى يا جمال ان تتخلص بعض البلاد العربية الخاضعة لهذا الحكم من هذا النظام البالي الموروث وتستعيز عنه بالنظام الجمهوري البرلماني هذا النظام الذي يكفل لها الحرية والتقدم في ميادين الحضارة السياسية والاقتصاد والاجتماع. واميتي المفضلة يا جمال ان تقوم في البلاد العربية حكومة ولايات يكون الحكم فيها لا مركزي على غرار نظام الحكم في الولايات المتحدة الاميركية فيصبح اسم الحكومات العربية « الولايات المتحدة العربية . »

فسر جمال من حديث صديقنا طريف وظهرت على محياه بواذر الغبطة والخبور وصفق طرباً وقال :

« وما رأيك يا طريف في قيام (حكومة عموم فلسطين) . وهنا ارسل صديقنا طريف قهقهة شقت عنان الفضاء وكانت تلك القهقهة تم عمّا يضطرم به صدر صديقنا طريف من الاسى والالم وقال والضحك يملأ شذقيه (ان في قيام حكومة عموم فلسطين) في مثل هذه الظروف مهزلة جديدة جاءت لتضاف الى المهازل التي مثلت على مسرح الديار المقدسة . وعلى كل حال يا جمال فاننا ننتظر ذلك اليوم الذي يتحقق فيه هذا الحلم الجميل ويصبح حقيقة راهنه . »

ولما فرغ صديقنا طريف من حديثه قال له محدثه جمال :

« ان حديثك ممتع يا طريف وان طلاوته جعلتني انسى كل شيء »

ولا تستثقلني يا طريف اذا ما اطلت عليك الكلام واكثرت عليك من
الاسئلة » ثم قال جمال :

« وما رأيك يا طريف في ضمّ البقية الباقية من فلسطين الى مملكة
شرقي الاردن . »

فقال صديقنا طريف :

« ان لهذه المسألة يا جمال حسنات وسيئات ، فمن حسناتها انها
انقذت الجزء الباقي من فلسطين من الاحتلال الصهيوني وان تكررت
على حدوده الاعتداءات ومن سيئاتها ان شرقي الاردن مستعمرة بريطانية
فيكون الانجليز خرجوا من فلسطين من باب ودخلوها من باب آخر .
ولو كانت مملكة شرقي الاردن يا جمال تتمتع باستقلال تام لما عارضنا في
هذا الضم ، وكيف نعارض ونحن ننتظر بفارغ الصبر ذلك اليوم الذي
ستصبح فيه الاقطار العربية تحت راية دولة واحدة . »

وهنا هم صديقنا طريف الى الانصراف لان حديثه طال وكاد الليل
ان ينتصف فادرك جمال ما عزم عليه صديقنا طريف وقال :

« لقد اطلت عليك الحديث يا طريف ويبدو لي انك سئمت هذا
الحديث فوالله لو بقيت تحدثني حتى ينفلق الفجر ما سئمت من حديثك . »
ثم قال :

« وما رأيك الآن يا طريف في برامج النقطة الرابعة » فقال صديقنا
طريف : « ان لبرامج النقطة الرابعة يا جمال اهداف وغايات لا مجال

لحصرها في مثل هذا الحديث وكل ما يمكنني قوله لك الآن ان غايتها
استعمار الشعوب اقتصادياً . والاستقلال السياسي لا يجدي الشعوب نفعاً
اذا كانت مستعمرة اقتصادياً . واذا ما اندلعت نيران الحرب الثالثة يا جمال
يمكن للولايات المتحدة وما يدور في فلكها من دول ان تتخذ من البلاد
التي تنفذ فيها برامج النقطة الرابعة قواعد عسكرية . وفي مثل هذه الحال
تصبح هذه البلاد ميدان حرب وهدفاً لغارات الاتحاد السوفياتي الجوية .
ولما فرغ صديقنا طريف من حديثه استأذن بالانصراف ونهض من مقعده
لسكن جليسه جمال استوقفه وقال :

« لقد حدثتنا يا طريف عن مسائل كثيرة ولم تحدثنا عن الجامعة
العربية فهل لك ان تحدثنا عن هذه المؤسسة الفتية ؟ . » فقال صديقنا
طريف : « ان فكرة الجامعة يا جمال فكرة جميلة ولكننا لا نريدها
منظمة اقليمية وجامعة حكومات : بل نريدها يا جمال منظمة عنصرية
وجامعة امة . »

ثم قال جمال : « ولماذا اخفقت الجامعة العربية في انقاذ فلسطين يا
طريف ؟ » فقال صديقنا طريف :

« كانت الجامعة العربية يا جمال كاللعبه في يد المستعمر الغربي . وكانت
الخطه التي اتبعتها في تحرير فلسطين خطه عوجاء منبثقة عن سياسة حمقاء .
وآية ذلك يا جمال ان سلمت الجامعة العربية قيادة جيوشها الزاحفة الى
فلسطين الى ملك شرقي الأردن اي انها سلمت هذه القيادة الى الانكليز

الذين قدّموا فلسطين الى الصهيونيين لقمة سائغة . ومهدّوا السبيل الى
المأساة التي حلت بعرب فلسطين . وعلى كل حال يا جمال فان الامة
العربية ليست مسؤولة عن نكبة فلسطين لانها لم تهزم في ميادين القتال
وانما هزمت حكوماتها في ميادين السياسة وساحات الحرب .»

الفصل الثاني

ذكرى منتصف ايار

كان صديقنا طريف يختلف الى منزل زميله جمال كل مساء كعادته
ليقرأ له ما يشاء من كتب الأدب والفلسفة والسياسة والصحف
اليومية والاسبوعية والشهرية . وذات مساء كان جمال يقرأ
لصديقنا طريف كتاب (معنى النكبة) للدكتور قسطنطين زريق ولما
انتهى جمال من قراءة الكتاب قال :

« لقد اصبح منتصف ايار على الابواب يا طريف وان لهذا اليوم
ذكرى اليمة في نفوسنا فهل لك ان تحدثنا عن هذه الذكرى المشؤومة ؟ »
فاستجاب صديقنا طريف لرغبة جليسه جمال وراح يحدثه عن ذكرى
هذا اليوم المشؤوم والألم يحز في نفسه والأسى يقطر من فؤاده فقال :
« يا له من يوم مشؤوم يا جمال ويا لها من ذكرى اليمة تتمزق لهولها
نياط القلوب وتتفتت لجسامة خطبها الاكباد .

ان ذكرى منتصف ايار يا جمال تملأ النفس يأساً وقنوطاً وكل ما

عاودتنا ذكري هذا اليوم يا جمال امتلأت قلوبنا أسىً وتقطرت افئدتنا
من شدة الآلام والهوان الذي امطرنا به .

لقد وقفنا يا جمال سداً منيعاً بثبات وورباطة جأش امام الاستعمارين
البريطاني والصهيوني فقارعناهما ربع قرن ونيف ونحن عزل من الاسلحة
والاعتدة الحربية التي كانت تزخر بها مخازن خصومنا .

وكان سلاحنا الوحيد يا جمال ايماننا الوطيد في حقنا وعزيمتنا الشديدة
التي لم تكل ولن تتثنى عن المطالبة بجلاء السلطات البريطانية الاستعمارية
عن فلسطين الحبيبة موطننا المقدى وموطن العرب الشم الأباة .

وكنا نأمل يا جمال ان يكون اليوم الخامس عشر من ايار يوم استقلالنا
وعزنا وهنأنا نرفع فيه علمنا وتحقق في سماء بلادنا رايتنا راية الحرية .

ولكن ما لبث هذا اليوم يا جمال ان طلع علينا باستعمار جديد وذل ما
بعده ذل فاخرجنا من بلادنا مكرهين وشتتنا في جميع الاقطار العربية
المجاورة نسام سوء العذاب ونعاني اشد الآلام النفسية بين ظهرائي اقربائنا
وذوينا .

ولكننا يا جمال لن ننسى فلسطين مهد الأباة والهدى والدين مهما
طال الزمن ومهما كان الثمن ففلسطين يا جمال حياتنا ومماتنا ولها نحيا ومن
اجلها نموت . «

واسترسل صديقنا طريف في حديثه وجمال مصغٍ اليه بكل مشاعره
واحساساته فقال :

« لا تجزعي يا مهد الكرام فمن ذاق العلقم لا بد وان يذوق الشهد
ومن ساءه زمن سرته ازمات . نحن في معزل عنك يا ارض الاجداد
ولكننا حفرنا صورتك في القلوب ورسمنا قدسك في الدماغ . ولكننا الآن
مشردون هنا وهناك بعضنا يقتات وبعضنا يقضي من شدة الطوى وبعضنا
يرتدي الملابس الرثة والآخرون يعيشون بالعراء ، اعذرنا يا فلسطين فنحن
الان كالعضو الاشل لا مأوى لنا ولا مال لدينا ولا دور للعلم ولا مصانع
للعمل ولا حول لنا ولا طول فقد تألبت علينا قوى الاعداء والاقرباء وقوى
الديمقراطيات المدعيات . لا لا يا جمال لن ندعن للشدائد ولن نستسلم
للخطوب ولن نقطع الامل من العودة اليك يا منية الارواح ومهجة القلوب .
بل سنعود اليك مكللين باكاليل الظفر . فانت لنا ونحن لك نقديك
بأرواحنا وبكل ما لدينا وسنحررك من قيود العبودية التي صفدك بها
الصهيانية والانجليز واعوانهم في العالم الجديد والشرق العربي . »

الفصل الثالث

مشروع التوطين مؤامرة استعمارية ضد العرب

و ذات مساء كان جمال يقرأ لصديقنا طريف بعض الصحف . وما ان
وقع نظره على عنوان خبر ضخم مؤداه « ان هيئة الامم المتحدة اقرت
مشروع توطين عرب فلسطين في الاقطار العربية » وما كاد جمال ينتهي
من قراءة هذا الخبر حتى طلب الى صديقنا طريف ان يبدي رأيه في هذه المسألة

الخطيرة وقال :

« وما رأيك يا طريف في هذا المشروع الذي يتحدثون عنه ليل نهار »
فقال صديقنا طريف :

« لقد آن يا جمال للشعب العربي ان يدرك امانى الصهيونية واشيائها
في العالم العربي .

لقد آن لهذا الشعب ان يعي قضاياه وعياً تاماً تكون نتيجته الحتمية
الاتحاد والكفاح في سبيل وطنه المغتصب والثأر لكرامته المداسة . لقد
حان يا جمال الوقت الذي يتحتم فيه على الشعب العربي ان يبتز كل ذنب
للاستعمار وان يزيل كل نفوذ اجنبي من بلاده هذا النفوذ الذي فرض عليه
بالقوة وكل شيء يفرض بالقوة لا يزال الا بالقوة ولا يفل الحديد الا الحديد .
ولا ريب يا جمال ان التجارب القاسية التي مرت بنا والواقع المرير الذي
نحن فيه يمليان على الامة العربية ان تنزع ثقتها من هيئة الامم المتحدة التي
جاءت لتحقق الحق وتزهق الباطل ولكنها ويا للأسف ازهقت الحق
واحقت الباطل . ومن اقطاب جامعة الدول العربية الذين خدروا اعصابها
بالتصاريح الكاذبة والخطب الجوفاء والبيانات المموهة . وان تعتمد امتنا
على قوتها الشعبية وارادتها . لان ارادة الامة فوق كل شيء ومصدر كل
شيء .

لقد آن يا جمال لشباب العروبة الاحرار ان ينزعوا القفاز الحريري
عن اليد الحديدية ويبدأوا جدياً في العمل المتواصل لمكافحة الفقر والجهل

والمرض والاقطاعية والخروج بامتهم من هذه الفوضى السياسية
التي تشكو منها الأمة كل يوم ويخلقوا لهذه الأمة المغلوبة على امرها
حياة انسانية حرة وكياناً يليق بهذه الأمة .

لقد آن يا جمال للطبقة المستتيرة من الامة العربية ان تدرك ان
المستعمرين لا يريدون الاستيطان عطفاً عليهم وحباً بهم . بل انهم
يريدونه ليقتضوا على كل امل لهم في استرداد وطنهم المسلوب .

وكخطوة اولى نحو الصلح مع اسرائيل والتبادل الاقتصادي معها
لانعاشها على حساب الشعب الفلسطيني وكرامة الامة العربية . وليبدأوا
في حلف الشرق الاوسط الذي يتحدثون عنه ليل نهار وليبقى أجراؤهم
وتبقى وكالتهم قابضة على زمام امر النازحين مدة طويلة . ان المستعمرين
يا جمال يريدون الاستيطان لان النازحين بوضعهم الحاضر ونفسياتهم الثائرة
ووطنيتهم المتأججة يهددون في كل لحظة نفوذهم ويشكلون قوة كاملة
تهدد كيان اسرائيل طفلة اميركا و بريطانيا المدللة . »

ثم قال صديقنا طريف :

« ايها النازحون قاوموا مشروع التوطين والتعويض بكل ما اوتيتم
من قوة . انتم سكان الخيام التي تعصف بها الامطار والرياح ، وحدوا
كلمتكم واثأروا لكرامتكم ، فاما استرجاع فلسطين وأما الى قبور طاهرة
هي والله خير من استمرار حالة النذل والركود التي تعيشونها . »

الباب الثاني

أحاديث فلسفية

الفصل الاول

هل حاول الفارابي التوفيق بين الحكمة و الشريعة ؟

كان الليل قد أرخى سدوله وعمّت الكون الظمأنينة والسكينة . وكان جمال يقرأ لصديقنا طريف محاضرات في الفلسفة الاسلامية . وكانت محاضرة تلك الليلة عن الفارابي وابن سينا . وما كاد جمال ينتهي من تلك المحاضرة حتى طلب الى صديقنا طريف ان يوضح له نقطة حيوية شغلت أئمة الفكر الاسلامي وارباب الفلسفة اليونانية وقال :

« هل حاول الفارابي يا طريف التوفيق بين الحكمة و الشريعة ؟ وهل وُفق في ذلك ام اخفق ؟ » . فاذعن صديقنا طريف لرغبة صاحبه جمال وقال :

« لو استعرضنا يا جمال تاريخ الفكر الاسلامي لوجدنا ان الانتاج الفكري الاسلامي قد انبثق عن مصدرين اثنين :

اولهما - مصدر الفلسفة وهو الترجمان . اي ما ترجمه وشرحه علماء

وفلاسفة العرب عن الفلسفة اليونانية وزادوا عليه .

وثانيهما - مصدر الدين وهو القرآن الكريم .

ان الغاية يا جمال من الدين والفلسفة او من الحكمة والشرعية واحدة
مهما اختلفت الطرق وتشعبت الافكار المؤدية الى هذه الغاية وقد يتفق
الدين والفلسفة حيناً ويختلفان احياناً وربما التقيا في جميع المرامي والاهداف
وافترقا في القليل اليسير منها . ولكن معظم رجال الدين كائناً ما كان هذا
الدين يا جمال كالانعام لا يفقهون اصول الدين ولا يفهمون رسالته على
حقيقتها فيؤثرون القشور على اللب ويتخبطون في بحر خضم من الجهالة
والغباوة . وليس من المنطق السليم يا جمال ان نطلب من عامة الناس فهم
ما جاءنا عن طريق العقل . لان مفاهيم هؤلاء يا جمال قصرت عن ادراك
سر ما جاءنا فكيف يمكنهم ان ينعموا ويتلذذوا بمعرفة سر رسالة الفلسفة؟
وان يتيحوا لها الانتشار بين الجماهير وان يتخلوا عن رجعتهم ويوقعوا بين
الدين والفلسفة . فيؤدوا الفروض الدينية ويخدموا الانسانية باخلاص
ويشتركوا في الابحاث الفلسفية والعلمية الدقيقة ويخلقوا كياناً لهم وحضارة
وبهذا يفوزون في الدنيا والآخرة ونعم الفوز .

فمن ضرب يا جمال عن الدين صفحاً واكتفى بالفلسفة رمي بالزندقة
والفسوق وكذلك كل من رمي بالفلسفة يا جمال من وراء ظهره واكتفى
بالدين وحده رمي بالرجعية والجمود وظل تائهاً في الدين خاضعاً لسننه وفروضه
دون أن يفكر في صحيحه وفاسده ودون ان يفتح لبنات افكاره مجال

التدقيق والتمحيص في كل ما ورد عن العقل والنقل. لا لا يا جمال لن يقبل
الفيلسوف بما رمي به من الحاد وفسوق ولن يظل المتدين تائهاً في ظلماته
بل سيبذل الاثنان كل ما في وسعهما للتوفيق بين الدين والفلسفة كما حاول
الفارابي وحاول بعده ابن طفيل وابن سينا وغيرهم من فلاسفة الاسلام . »

وراح صديقنا طريف يتحدث الى جليسه جمال فقال :

« لا خلاف يا جمال بين الدين او ما نسميه بالشرعية وبين الفلسفة او
ما نسميها بالحكمة في الأصل وانما الخلاف بين الفلاسفة ورجال الدين
ولقد حاول الفارابي يا جمال ان يوفق بين الدين والفلسفة او قل بين الحكمة
والشرعية فبدأ الفارابي في محاولته هذه باثبات وجوده تعالى وهو كسائر
فلاسفة المسلمين الذين بدأوا بمحاولات التوفيق هذه باثبات صانع حكيم
وخالق مبدع فاطلق الفارابي يا جمال دليل العناية وحذا حذوه سائر المفكرين
المشاركة والمعاربة فقال بواجب الوجود وممكن الوجود ومستحيل الوجود
وتوصل الى اثبات وجود الكائن الاعظم بادلة منطقية عندما قال :

« يتعادل ممكن الوجود ووجوده وعدمه ووجوب يرجح وجوده على
عدمه او العدم على الوجود وهذا المرجح يجب ان يكون بذاته واجب
الوجود لكي لا يحتاج في وجوده الى مرجح آخر والكائن الذي يرجح
الوجود على عدمه هو الله . » ويتضح لنا مما تقدم يا جمال ان فيلسوفنا
بنى تفكيره على أسس جدل افلاطون ومنطق ارسطو ومهد بالمقدمات الى
النتائج المعينة فتوصل ابو النصر الى مكان يرمي اليه أئمة الدين فان

اختلفت الوسيلة عند الفريقين فالغاية واحدة. وبعد ان انتهى الفارابي
يا جمال الى اثبات وجود الخالق ذهب الى التكلم عن صفاته وهو في هذه
القضية متقلب يعتنق الدين تارة وطوراً يطلقه ويختار تارة اخرى بين
الامرين فهو في نفي الشريك ونفي الضد ونفي الحد عن الله افلاطونياً
اسلامياً وفي القول بان وجوده عن ذاته افلاطونياً اكثر منه اسلامياً وفي
الأسماء التي ينفي ان يسمى بها الخالق افلاطونياً محضاً وهذه يا جمال هي
احدى النقاط التي اخذها الغزالي عليه واما فيما يتعلق في بعد الله عن
الصفات يخلص الفارابي الى الكون فيقف امام هذا الخلق وقفة الحائر
فالدين يذهب الى القول ان الله قال للعالم كن فكان .

فهم ابو النصر الخلق يا جمال كما فهمه « افلوطين » وقرب نظريته
من العقيدة الاسلامية فوق حيناً واخفق احياناً وسلم بالمبادئ الثلاثة التي
بنى عليها فيما بعد ابن سينا مذهبه وهي مبادئ واضحة بسيطة تلخص
فيما يلي :

اولاً - ان العقل عند العقول المفارقة هو الخلق .

ثانياً - لا يمكن ان يصدر عن العلة الواحدة الا معلول واحد في النوع .

ثالثاً - كل ممكن الوجود بذاته هو واجب الوجود بعلته .

ورأينا الفارابي يا جمال في نظرية الفيض ايضاً يحاول التوفيق غير أنه
رأى ان هذه النظرية الاسلامية التي وان أقرت ببعد الخالق عن العالم
تتكرر كل الانكار وجود مثل هذه الكائنات القصية للخالق عن مخلوقاته

ولذلك رأينا الفارابي يا جمال يحاول تقريب هذه الفكرة الغريبة عن بيئته من الأسس الإسلامية لتوضح التناقض الذي لمسه معاصروه بين النظريتين فإذا به في كثير من مقاطع كتاب « آراء اهل المدينة الفاضلة » يقارب العقول المفارقة من الملائكة وهكذا توصل الى ادخال اغرب ما جاء من من آراء في صلب الاسلام خاصة والديانات الموحدة عامة متتبعاً في ذلك نهج المدارس المستغفرقة . وانتهى ابو النصر يا جمال من جميع محاولاته التوفيقية هذه الى الكلام عن مصير النفس فقال قولاً يشابه الديانات الموحدة وثبتت الرسالة الإسلامية الى النفس الصالحة تنعم بالجنان والنفس الشريرة تشقى في السعير فقال الفارابي قولاً يشبه هذا ذا كراً ان هناك عالمين عالماً تلقى فيه النفوس جزاء حسناتها وعالماً آخر تلقى فيه سيئاتها بعد هذا التفصيل والعرض الشامل لأهم نقاط التوفيق بين الحكمة والشريعة نخلص الى القول بان الفارابي لم يوفق في جميع محاولاته بل اخفق مراراً . ولا عجب في هذا الاخفاق لان الفارابي الباديء الاول في فتح هذا الطريق الذي سيكمله من بعده فلاسفة المشرق والمغرب عامة وابن طفيل خاصة في قصة حي بن يقظان .

الفصل الثاني

بين الفلسفة الميتافيزيقية والفلسفة المادية

وذات مساء كان جمال يقرأ لصديقنا طريف محاضرات في الفلسفة

وكانت تلك المحاضرات معقدة بعيدة المنال . وما كان من جمال إلا أن
طوى الكتاب وقال :

« لقد أثقلت على يا طريف واطمت الوقت في قراءة هذا الموضوع
الذي لم استوعب منه شيئاً ولم اتوصل منه الى نتيجة محسوسة ولم تعلق في
ذهني منه جملة دعنا من قراءة الفلسفة يا طريف واتركها للسفسطائيين ولا
تشق علينا في قراءتها وان كان لا بد من المتابعة في قرائتها فحدثنا عنها بلغة
سهلة ميسورة لعلنا نصيب منها شيئاً او نظفر من الغازها بشيء . واذا اردت
ان تحدثنا يا طريف فحدثنا عن الفلسفة الميتافيزيقية الروحية وعن الفلسفة
المادية العلمية . » فلبى صديقنا مطلب محدثه جمال وراح يحدثه فقال :

« ليس من الغريب يا جمال ان تحمل على الفلسفة هذه الحملة الشعواء
وما اكثر الذين يتحاملون عليها لانهم لم يسبروا غورها لبعده الشقة ما بين
مداركهم وموضوعات الفلسفة الشائكة . وانا اذا حدثتك عن الفلسفة لا
أزعم انني فهمتها كما يجب ان تفهم ولا يصح لي ان ادعي ذلك لأن
الفلسفة بحر خضم لم يصل الى قعره احد بعد . وان يكن جمهور الفلاسفة
حاولوا خوض البحر فلا تزال محاولاتهم تقرينية وعاجزة عن ادراك الحقيقة »
واما الفلسفة الميتافيزيقية الروحية يا جمال فترى ان هناك عالماً فوق الطبيعة
وما وراء الطبيعة عالم هايولي اعلى من قدرة الانسان وهو المشرف على
الكون . بينما ترى الفلسفة المادية العلمية عكس ذلك فتقول ان
الانسان هو اعلى مخلوق في الكون وان الالهية نفسها من نتاج تفكيره

وترى الفلسفة الميتافيزيقية الروحية يا جمال ان المعرفة بنت الفلسفة بينما ترى الفلسفة
المادية العلمية ان الفلسفة بنت المعرفة . وتقوم الفلسفة الميتافيزيقية الروحية على
الاحسان الذي يقتل المواهب وترى انه من واجب الاغنياء اطعام الفقراء
اي ان هذه الفلسفة يا جمال تقر النظام الطبقي وفي هذا أجحاف بحقوق
الانسان . واما الفلسفة المادية العلمية يا جمال فترى ان تنقذ الانسانية
من برائن التعاسة والشقاء تحارب الاحسان القتال والنظام الطبقي البغيض
لتطلق العنان لمواهب الانسان الخلاق . اي ان الفلسفة المادية العلمية تأخذ
على عاتقها محاربة الفقر لكي لا يكون هناك فقراء . ويزعم الدكتور شارل
مالك يا جمال وهو من أئمة المدافعين عن الفلسفة الميتافيزيقية الروحية فيقول :

« هناك حقيقة تسمو على المادة العلمية وهي لا تتأثر بها . هذه هي
الحقيقة الخالدة هي حقيقة الفكر والروح ، وبوسع العقل ان يطمئن اليها
ويسعى متواضعا الى فهمها بدون صراع . الانسان قابل الاتصال بالعزة
الالهية المطلقة بفكره وقلبه وروحه وعلى قدر اتصاله بها واستجابته لارادتها
تتوقف قيمته ويخلق في سموه . » « الله موجود وهو الأب المحب للجميع
وخالق الكون » « الانسان غير قابل الكمال لان في داخلية طبيعته
جدره معاكسة لا تشفى بغير مساعدة فوق الطبيعة » ويعارض الدكتور
جورج حنا ، يا جمال ، رأي الدكتور شارل مالك فيقول ان هذا احتقار
لأنسانية الانسان . وهذا ما قال به كارل ماركس ولينين . وما كاد
صديقنا طريف ينتهي من حديثه حتى سأله جمال فقال :

« اتدين يا طريف بالفلسفة الميتافيزيقية الروحية ام بالفلسفة
المادية العلمية . » فاستنكف صديقنا طريف عن الاجابة وقال :
« لا استطيع ان اجيبك على سؤالك يا جمال لانني لم أتعلم في دراسة
الفلسفتين الميتافيزيقية الروحية والمادية العلمية وعندما يتم لي ذلك يحق لي
ان اجاهر بأرائي واعلن معتقدي ولن اعتقد إلا بما يقبله العقل ويتمشى مع
الواقع . ولا يهمني ان يكون معتقدي يتفق والفلسفة الميتافيزيقية الروحية
أو الفلسفة المادية العلمية وانما يهمني الاصلح منهما ذلك المبدأ الذي يطمئن
لصحته عقلي وترتاح لصابه نفسي . »

الفصل الثالث

الاشتراكية في الاسلام

وما كاد صديقنا طريف يفرغ من حديثه عن الفلسفة الميتافيزيقية
الروحية والفلسفة المادية العلمية حتى اشرباً جليسه جمال للكلام فقال :
« ما رأيك يا طريف في الاسلام ؟ وهل للاشتركية منه نصيب ؟ »
فقال صديقنا طريف :

« ان الاسلام يا جمال لا يقر بقاء طبقة من الطبقات او فرد من
الافراد محروماً دون ان يكفل المجتمع حاجاته فهو اذاً اشتراكي في تكوينه
ونظامه يكفل سعادة الفرد والجماعة . والاشتركية في الاسلام كما يرى
الاستاذ محمد حسين هيكل تقوم على اساس خلقي سام يكفل اخاء

الطوائف وتسكاتها وتعاونها على البر والتقوى لا على الاثم والعدوان . وما عليك يا جمال الا ان تعود الى صدر الاسلام وتطلع على معاملة المسلمين بعضهم بعضاً فانك اذا فعلت ذلك تجد من امر الاشتراكية الاسلامية ما تستغربه كما استغربه غيرك من الباحثين . » ثم قال صديقنا طريف :

« تعال معي يا جمال واستمع الى المرحوم امير الشعراء احمد شوقي وهو يتغنى في مدح الرسول الاعظم في قصيدته الحمزية التي مطلعها :

ولد الهدى فالكائنات ضياء وفم الزمان تبسم وثناء

تعال معي واستمع الى رياض السنباطي وهو يوقع الحانه والى كوكب الشرق ام كلثوم وهي تترنم وتنشد .

الأشتر اكون انت امامهم	لولا دعاوى القوم والغلواء
داويت متئداً وداووا طفرة	وأخف من بعض الدواء الداء
الحرب في حق لديك شريعة	ومن السموم الناقعات دواء
والبر عندك ذمة وفريضة	لا منة ممنونه وحياء
جاءت فوحدت الزكاة سبيله	حتى التقى الكرماء والبخلاء
أنصفت اهل الفقر من اهل الغنى	فالكل في حق الحياة سواء
فلو ان انساناً تخير ملة	ما اختار الا دينك الفقراء

الباب الثالث

أحاديث اجتماعية

الفصل الاول

أثر السينما في الناشئة



قالت رباب لصديقنا طريف وهي تحاوره وتبتسم :
« هل لك يا طريف ان تحدثنا عن الافلام السينمائية وأثرها في أخلاق
الناشئة وحياة الامم » . وهنا اعتدل صديقنا طريف على مقعده وتناول
كوباً من عصير البرتقال . ثم أته رباب بفنجان من القهوة وعلبة من
السجائر الفاخرة . وراح صديقنا طريف يرشف القهوة وينفث الدخان
ويحدث جليسته رباب بلباقة وطلاقة فقال :

« ان للافلام السينمائية يا رباب بالغ الأثر في تكوين الناشئة وحياة الامم .
واذا كانت الافلام التي يشاهدها الجمهور ترتدي طابع الخلاعة وتتنافى مع
الاخلاق كان أثرها في نفوس الناشئة سيئاً وفاسداً . واما اذا كانت الافلام
التي يشاهدها الجمهور ترتدي طابعاً ادبياً وتحمل رسالة ثقافية وتاريخية
 واجتماعية كان لها اطيّب الأثر في نفوس الناشئة وتقدمها الفتي والعلمي

والخلفي . ولهذا أرى يا رباب انه من الواجب على اصحاب دور العرض
الامتناع عن عرض الافلام التي يلمس فيها بعض ما يشين ويؤدي الى
التدهور والانحطاط الخلفي . وما اشد حاجتنا يا رباب الى اصحاب دور
عرض يتحلون بالوطنية الصادقة والخلق النبيل ويقدمون رسالة الفن حقاً
قدرها ولا يستغلونها في سبيل جمع الاموال وتكديسها في خزائنها . ان
وضعنا الحاضر يا رباب وخاصة بعد نكبة فلسطين يحتم علينا ان نعرض
لناشئتنا الافلام الحربية الحماسية التي يمتزج بها الدم بالنار ، والموت بالحياة
والياس بالارادة . وعلى اصحاب دور العرض يا رباب ان يكثرُوا من عرض
الافلام التي تصوّر لناشئتنا العزيزة حياة العطاء والمخترعين لعل ذلك يهيب
بالناشئة الاقتداء بهم ويخرج من الناشئة العربية عطاء ومخترعين وليس
ذلك على الله بعزير ولا على الارادة ببعيد ومستحيل . وأرى يا رباب
انه من واجب اصحاب دور العرض في الاقطار العربية عرض الافلام
المهنية وتشجيع الافلام التي تساعد على تعلم المهن او التجارب الزراعية وما
يتم الى الزراعة بصفة . واذا حقق اصحاب دور العرض في بلادنا يا رباب
هذه المطالب وعملوا بموجبها يكون الاقبال على دور العرض لمشاهدة هذه
الانواع من الافلام اكثر مما كان عليه سابقاً وبهذا نأخذ بيد ناشئتنا
الى الشاطئ الميمون ونوجه أمتنا الوجهة الصحيحة . ونحرر القسم الذي
كان وما يزال من وطننا يرزح تحت قيود الاستعمار ويئن تحت عبئه الثقيل .
واني اذ أوجه حديثي هذا الى الحكومات العربية أهيب بالآباء والأمهات

يا رباب منع ابنائهم من مشاهدة الافلام الخليعة التي تفسد على الشباب ذوقهم وتنغص عليهم عيشهم وعلى الامة العربية يا رباب في كل قطر ومصر أن تشنّ على هذه الافلام حرباً شعواء لا هوادة فيها ولا لين. لان في هذه الحرب يا رباب رسالة سامية وجهاً مقدساً وخدمة جلّى تؤدى بها الامة العربية الى ناشئتنا التي يتوقف على سواعدها ازدهار امتنا وعظمتها في المستقبل القريب . »

الفصل الثاني

ايتمها الفتاة هيّا الى العلم والعمل

كان المهزيع الاول من الليل قد انقضى وكانت رباب تقرأ لصديقنا طريف ما شاء من كتب ومقالات. وما لبثت رباب ان كَلَّت من القراءة وسئمت من المطالعة وطوت الكتاب ووضعت في مكانه وقالت :

« دعنا من قراءة الصحف والكتب يا طريف لنعود اليها في مساء غد » . وبعد ان اخذت رباب لنفسها قسطاً من الراحة قالت :

« ما رأيك يا طريف في تعليم الفتاة العربية ؟ وما رأيك في مطالبتها بالحقوق السياسية ؟ ومساواتها بالرجل ؟ » فقال صديقنا طريف :

« ان الخطوات التي تخطوها الفتاة العربية في مدمار التقدم والثقافة والعلم تنتعش لها الروح وتبشر بالأمل الوطيد في مستقبل الحياة العربية الزاهر وفي حياتها الباسمة المشرقة الجديدة . ولا ريب يا رباب في ان الفتاة العربية

أخذت مكانها في موكب النهضة الحديثة وسارت في هذا الموكب سيراً
حسناً وإن كانت خطواتها في هذا الموكب بطيئةً فأنها تبشر بنهضتها
المباركة هذه النهضة التي ستنقل بها من حضيض الضعة إلى أوج الرفعة
بفضل العلم والعمل .

أنا نصير الفتاة العربية يا رباب ومعها في جميع مطالبها ، وكل ما أتمناه
أن تشعر بواجباتها نحو ابنائها ، وزوجها وأسرته وبيتها ، وإن تطالب
بحقوقها على أسس معقولة تتمشى مع الواقع والمنطق . فمن السخف عندي
يا رباب أن تطالب الفتاة العربية بتعليمها التعليم الكامل ومساواتها بالرجل
وتبوءها المراكز السياسية ، وهي لا تزال تجهل شؤون تدير منزلها وتربية
أبنائها تربية صالحة ، ولكن ويا للأسف فإن الفتاة العربية لا تزال تجهل
أسس الوظيفة التي خلقت لها وهي ولا ريب مهنتها الطبيعية . أن الفتاة
العربية لا تشعر بثقل الأعباء الملقاة على عاتقها ولا تحس بجسامة المسؤولية
المكلفة بأدائها . فالكثيرات من الفتيات العربيات يا رباب لم ينلن حظهن
من التعليم الابتدائي . بينما تطالب فتاتنا بتعليمها التعليم الكامل ومساواتها
للرجل في كل شيء ومزاحمته على تسنم المراكز السياسية . »

وهنا امتلاء صدر رباب غيظاً وحنقاً وراحت تدافع عن بنات
جنسها فقالت :

ليست الفتاة العربية وحدها يا طريف جاهلةً ولا هي وحدها غارقة
في خضم من الأمية بل يشاركها في الجهل والأمية الرجل

وان كانت نسبة المثقفات من النساء اقل منها عند المثقفين من الرجال. ومع ذلك فان الرجل المثقف والجاهل في الحقوق سواء ولم لا تكون المرأة المثقفة مساوية للرجل المثقف في الحقوق والواجبات فتنتخب وتنتخب ؟ ولم لا تكون المرأة الامية مساوية للرجل الأمي في الحقوق والواجبات ايضاً ؟ ان الرجل والمرأة يا طريف خلقا من معدن واحد وليس الرجل من ذهب والمرأة من نحاس . « فأعجب صديقنا طريف بجليسته رباب واخذ بروعة حديثها ودهش من قوة دفاعها عن بنات جنسها على قلة حظها من الثقافة وراح يحدثها فقال :

« لقد اخفق رجال العرب في الميادين السياسية يا رباب ، وهما هي البلدان العربية في بليلة واضطراب ، وقد اغتصبت فلسطين عنوة من اهلها وانتزع العدو من البلدان العربية قلبها ، وهذا اكبر دليل على وجود فئة جاهلة بين رجال العرب يجب ان تحرم مما تتمتع به من حقوق لان لا فرق بين الرجل الجاهل والمرأة الجاهلة . ولا بين الرجل المثقف والمرأة المثقفة وارى يا رباب ان يحرم الرجل الأمي من حقوقه السياسية وان تحرم المرأة الامية من هذه الحقوق ايضاً وان تصبح المرأة المثقفة مساوية للرجل المثقف في جميع الحقوق والواجبات لها ما له وعليها ما عليه ، ولو ان الفتاة العربية يا رباب ضربت بمساواتها للرجل وتبوءها المراكز السياسية عرض الحائط في الآونة الحاضرة وحصرت نشاطها وجهودها على محو الامية من نفوس فتياتنا وعلى تعهدها بالوسائل التربوية الصالحة وفي مطالبة ولاية الشأن

في البلدان العربية ان يسنوا قانون التعليم الاجباري المجاني لها ، وان
يؤسسوا المدارس الابتدائية والمعاهد الثانوية والعالية تدريجياً لتتلقى فتياتنا
فيها العلوم التي تعود عليها وعلى الوطن العزيز بالخير والنفع العميم لأنصفت.
فاذا سلكت فتاتنا هذا السبيل يا رباب وتوفرت لديها سبل التعليم
طالبت بمساواتها بالرجل ، وعهد اليها بمزاولة المهن السياسية .

هل تعلمي يا رباب ان في البلدان العربية ما يقرب من ثلاثين مليون
انثى ، يفوق عدد الامهات منهن عدد المثقفات بخمسة اضعاف .

انا ادرك يا رباب ان المرأة لا تقل عن الرجل ذكاء ومقدرة اذا
توفرت لديها الوسائل التي تتوفر للرجل ، ولا اريد ان تنزوي في عقر بيتها
وتتكتمش على نفسها . فهي ليست حسوناً يسجن في القفص . واحث الفتاة
العربية على تحطيم القيود التي لا تمت الى الحقيقة بصلة . هذه القيود التي
صفدتها بها تلك التقاليد الموروثة البالية .

ولكنني أريد يا رباب بالفتاة العربية ان تقلد الفتاة الغربية في كل
شيء . ولكنني اود ان تأخذ فتاتنا عن الغربية كل ما هو حسن وجميل
فتفيد منه نفسها وناشتتها وان تقذف من وراء ظهرها بكل ما هو سيء
ومشين » . ثم قال صديقنا طريف :

« كفانا ايها الفتاة العربية الكريمة وقوفاً امام المرأة . وتصنيفاً
للشعر على احدث طراز . قولي يا رباب لفتاتنا ان تقذف الى الهاوية بسلاحها
الطبيعي المعهود ، الفتنة والسحر والاهذاب !!

لقد حان يا رباب لفتاتنا ان تستيقظ من سباتها العميق وان تنهض من كبوتها . فنحن بحاجة الى فتيات مثقات يتعهدن الناشئة بالتربية الصالحة وينشئن لنا جيلاً جديداً قوي الاجسام سليم العقول . فاذا ارادت فتاتنا يا رباب ان تصل الى ما كانت - ولا تزال - تصبو اليه نفسها من تمتع بالحقوق السياسية ومجارة الرجل في كل الميادين فعليها ان تتخذ العلم والعمل شعاراً لها . فبالعلم والعمل فقط تنال مآربها واهدافها وبهما معاً تخدم وطنها والانسانية . وتؤدي رسالتها على الوجه الاكمل وتصل الى ذروة المجد والسؤدد .!!» ثم قال صديقنا طريف :

« وما اشد حاجتنا يا رباب الى نساء مثقات يعملن بجد ونشاط في ميادين التربية والتهذيب والأعمال الخيرية . اننا يا رباب في هذه الآونة العصيبة في حاجة ماسة الى امهات يغرسن في نفوس ناشئتنا العزيزة حب الحرية والاستقلال وكريم الخصال ويلقنها محبة الوطنية ، صفوة الفضائل البشرية ، فاذا ما رببت ناشئتنا على هذا النسق يا رباب لا يمكن ان تدعن لظلم ظالم او اجحاف مجحف بل تكون بالرغم مما تصادفه من صعاب درعاً للوطن وعدة تدود عن حماه في الشدائد والملمات .!!!»

الفصل الثالث

نصيحة لأمهات المستقبل

قالت رباب لصديقنا طريف :

« ما رأيك يا طريف في الزواج ؟ ولماذا لا يكون موقفاً في اغلب

الاحيان ؟ »

فابتسم صديقنا طريف وقال :

« ان مثلك مثل تلك الوصيفة التي مرّضت سيّدتها فطلبت الى دكتور في الفلسفة ان يعالجها فقال لها الدكتور انه دكتور في الفلسفة لا في الطب فقالت له الوصيفة لا بأس يا دكتور فان فلسفة سيدي مريضة . او مثلك يا رباب مثل من يطلب الى طبيب ان يرسم له خريطة منزل وكان عليه ان يطلب ذلك الى المهندس . ولو انك يا رباب عرضت هذه المسألة الخطيرة على الاختصاصيين من علماء الحياة الجنسية وعلماء النفس والاطباء لانصفت ولأصبت الهدف لان هؤلاء من ارباب الاختصاص والخبرة في مثل هذه الأمور وهم اصحاب الباع والذراع والقدرح المعلى في هذا الموضوع الحيوي » . فقالت رباب :

« لا اريد ان اشقّ عليك يا طريف ولا ان أثقل كاهلك بهذا السؤال وانما اريد ان تحدثني لأروّح عن النفس بعض الهمّ والالم وفي حديثك الطليّ اللبق ما يدخل على النفس البهجة والسرور ويذهب ما علق بها من يأس وكدر وقنوط ونكد فحدثني بما تجود به القريحة وبما وصل اليه علمك في هذا الموضوع على حداثة سنّك ولا اظنك يا طريف اختبرت الحياة الزوجية ووقعت في شركها » .

فأعجب صديقنا طريف بصراحة محدثه رباب وراح يحدثها في هذا الموضوع الخطير على قصر باعه في شؤونه وعدم خبرته فيه وضآلة علمه في مثل هذه الامور وما شاكلها فقال :

« ان الزواج يا رباب واجب وطني مقدس يتحتم على الحكومات العربية ان تشجعه وترعاه وتولي النسل العناية الكافية . اما قولك يا رباب لماذا لا يكون الزواج موفقاً في اغلب الاحيان » فاني ارى ان اخفاق الزواج نتيجة حتمية للتفاوت الطبقي والاجتماعي والاقتصادي وللغوارق الثقافية والخلقية وللبون الشاسع في مستوى التفكير وعدم التكافؤ الجنسي وللتفاوت في السن بين الازواج . وارى يا رباب ألا تقبل الفتاة على الزواج والا يقبل الفتى على الزواج الا بعد استيفاء السن القانونية له . واني انصح كل انسان ألا يقبل على الحياة الزوجية الا بعد ان يتأكد من زوال الفوارق التي ذكرتها في مطلع هذا الحديث والا يقبل على هذه الحياة الجديدة التي يتوقف عليها مصيره ونصيبه من سعادة وشقاء ، الا بعد روية وتفكير عميق وطول اناة . لان قضية الزواج قضية حيوية وهامة للغاية . فالتهور في الزواج ضار جداً ، وآلام الحياة الزوجية قاسية جداً ومؤثرة ، وما بعدها آلام . وغالباً مايكون في العجلة الندامة وفي التأني السلامة . واذا قدر للانسان من ذكر واشى ان يتزوج فلا يتزوج الا بمن يطمئن قلبه لقلبها او قلبها لقلبه وتآلف روح الانسان روح الانسنة التي سيعيش معها وتملاً بيته ضياءً ونوراً وتآلف روح الانسنة روح الانسان التي ستقضي حياتها في كنفه ويدخل الى نفسها القبضة والسرور ويملاً بيتها بالفرح والحبور . وعلى الشاب والشابة يا رباب ألا يقبلا على الزواج قبل ان يشعرا بالحببة المتبادلة وان يستويا في هذه المحبة والشعور المقدس وفي تلك العواطف النبيلة . وعلى الازواج يا رباب ان

يحرصوا دائماً على ان تربط بعضهم ببعض روابط الاخلاص المجرد عن كل غاية مادية ، وعرى الحب الطاهر النقي من كل شائبة مشينة ومرمى جسدي ، ومن المؤسف يا رباب ان معظم الرجال لا يقبلون على الزواج الا من النساء المثریات لا بدافع الروابط الزوجية المقدسة بل بقصد كسب المال فيتلمسوا جميع الوسائل للوصول الى اولئك المثریات بشتى انواع الخيل والخبث والدهاء والخداع . ومتى ظفروا بحاجاتهم منهن وبلغوا ما ربهن منهن ووقعن في ما نصبوه لهن من أشراك . لا يتورع اولئك الرجال من أن يسومهن سوء العذاب ، ويذوقوهن ما شاؤا من ضروب التنكيل والتنغيص والمخاتلة والتعاسة . « ثم قال صديقنا طريف :

« ينبغي على الفتاة ان تكون حذرة يا رباب وكذلك ينبغي على الفتى ان يكون حذراً لان النساء على جانب كبير من الخبث والمكر والدهاء . ولعلك تذكرين قوله تعالى يا رباب في سورة يوسف عندما راودت امرأة عزيز مصر يوسف عليه السلام عن نفسها مستغماً كيدها . « أَنَّهُ مِنْ كَيْدِ كُنَّ أَنْ كَيْدَ كُنَّ عَظِيمٌ . » وارى يا رباب الا تتزوج الفتاة الا بمن تحبه ويحبها ولو كان فقيراً معدماً . والا يتزوج الفتى الا بمن يحبها وتحبه ولو كانت فقيرة معدمة . ولا يضمن الحب حياة زوجية سعيدة للأزواج ان لم تزل الفوارق التي ذكرتها في صدر هذا الحديث . ويتحتم على الأزواج يا رباب ان يتعاونوا فيما بينهم في جميع شؤونهم ومراحل حياتهم . وان يشارك بعضهم بعضاً في الافراح والاتراح . وارى يا رباب ان تقترن الحياة الزوجية بوجود صفات في كلا

الزوجين يحيد احدهما تقليد الآخر فيها . وان تشعر الزوجة بزهو وسرور
بين زوجها وغيره من معارفها ومعارفه . وعلى الزوجين يا رباب ان يشعرا
بنقص وفراغ اذا كان احدهما غائبا عن الآخر . وان يحبا البقاء معاً ولو
كانا على خصام . والخصام ممقوت في الحياة الزوجية . والجدير بالازواج
والزوجات ان يكونوا دائماً على وئام . وجميل جداً ان تضحي الزوجة
بشيء من رغائبها في سبيل ارضاء زوجها . وان يضحي هو ايضاً بشيء
من رغائبه في سبيل رضائها . واجمل من هذا كله ان تكون التضحية
المتبادلة ناتجة عن اختيار وسرور لا عن اكرام ومضض . ويجب ان
تحب الزوجة صفات زوجها . وان يحب صفاتها وان يحبا
معاً ان يرثها عنهما فلذات كيديهما فيما بعد . وعلى الزوجة يا رباب
ان تمدح زوجها وتكبره وتجله بين رفيقاتها وتشعرهن انه عنصر متم لها .
ولا كيان لها بدونه .

واذا كان الازواج يا رباب قد فكروا في تبعات الزواج . وفي المنازل
التي سيسكنونها مع زوجاتهم . وفي الاولاد وكم تحب ان يكون عددهم
وكيفية تربيتهم وكيف سيكون مستقبلهم .

واذا كانت الزوجات قد فكرن في كل هذا ووعينه وعياً تاماً . فاذا
توفر للازواج والزوجات نصف ما ذكرنا او يزيد فليقبلوا على الزواج ولا
يهابوا شيئاً . واذ لم يتوفر لديهم النصف مما ذكر فلا يتزوجوا ولا يقذفوا
بانفسهم الى التهلكة والشقاء !!!

الباب الرابع

أحاديث أدبية

الفصل الاول

جهل للتاريخ



و ذات مساء كانت رباب تقرأ لصديقنا طريف في رسالة الغفران
لحكيم المعرة ولما بلغ بها المطاف الى هذا البيت من الشعر :
أعجبي أمةً لأصرف الليالي مسخت اختنا سكينه فاده
قالت : « حقاً ان ابا العلاء لجنون » فقال صديقنا طريف ساخراً :
« رب جنون خير من العقل يا رباب » وبعد جدال طويل ونقاش
عنيف طرحت رباب رسالة الغفران ارضاً وقالت :
« انني لا افهم شعر المعري وسفسطته يا طريف واني اكره ان اقرأ
ما لا افهم وما لا يفهم . » فقال صديقنا طريف :
« اي نوع من الكتب تودين ان تقرأ يا رباب » فقالت رباب :
« احب قراءة الكتب الادبية ولا سيما الغزلية منها يا طريف »

وراحت رباب تنشد ما قاله جرير من شعر في تأثير جاذبية المرأة
عند الرجل :

ان العيون التي في طرفها حورٌ قتلنا ثم لم يحين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به وهن اضعف خلق الله انسانا
ولما فرغت رباب من انشاد ما وعته ذاكرتها من الشعر الغزلي قال
صديقنا طريف دعينا من الغزل يا رباب وعودي بنا الى رسالة الغفران
تلك الرسالة التي أشعر أثناء قراءتها بلذة وممتعة . ولكن رباب أبت ان
تعود الى رسالة الغفران لانها كانت تكره المعري كرهاً شديداً . ومصدر
كره رباب للمعري رأيه السيء في المرأة . فالح عليها صديقنا طريف ان
تتابع قراءة رسالة الغفران لكن رباب لم تستجب لرغبة صديقنا طريف
وتناولت كتاب « جحيم دانتي » وراحت تقرأه واسترسلت في قراءته وقتاً
سيراً وفجأة توقفت عن القراءة وقالت :

« الاتظن يا طريف ان أبا العلاء تأثر بجحيم دانتي لما كتب رسالة
الغفران » فاطرق صديقنا طريف قليلاً وقال :

« كان الاولى بك يا رباب ان تقولي ان دانتي تأثر برسالة الغفران
لما كتب جحيمه لان دانتي اتى بعد المعري وبين شاعر المعري وحكيم
فلورنسه واد سحيق من الزمن » فسخرت رباب من نفسها وعلت محياها
بوادر الخجل لأنها كانت تجهل التاريخ او تكاد تجهله وقالت :

« ليس الذنب ذنبي يا طريف اذا ما جهلت التاريخ او كدت اجهله

ولكن الذنب ذنب الاستعمار البغيض الذي وضع لنا هذه البرامج الثقافية
الاستعمارية المرهقة ، ان ثقافتنا يا طريف لا تمت الى الثقافة
الوطنية بصلة ولو انك سألتني عن فكتور هيجو وعن لامارتين وفولتير
وجان جاك روسو وسواهم من شعراء فرنسا وفلاسفتها لما أخطأت في
الاجابة . واما سبب جهلي لتاريخ بلادى وشعراء العرب وفلاسفتهم فهو
الثقافة الاستعمارية المجردة من الوطنية . » ثم قالت :
« ومن المؤسف يا طريف اننا بقينا نسير على هذه البرامج الاستعمارية
ونترسم خطاها في عهد الاستقلال . » !!!

الفصل الثاني

أيهما اخلص للآخر الرجل ام المرأة؟

وذات مساء قالت رباب لصديقنا طريف : « أيهما أخلص للآخر
الرجل ام المرأة يا طريف » فابتسم صديقنا طريف وقال :
« لقد سئلت هذا السؤال اكثر من مرة يا رباب وكان جوابي عليه
ان الاخلاص موجود عند الرجل والمرأة لكنه اكثر بكثير عند الرجال
مما هو عند النساء » « وما عليك يا رباب اذا اردت معرفة رأيي في المرأة
الآن ان تعودى الى كتابي « الحب والجمال ومقالات اخرى » وان تقرأي
الفصل الاول منه « الحب كما أفهمه » بدقة وانعام نظر » ثم قال صديقنا
طريف : « ولعلي انصف الرجل يا رباب اذا ما ذكرت لك مرثية جرير
في امراته هذه المرثية التي تفيض بالعواطف النبيلة والاحساس الرقيق وراح

ينشدها هذه المراثية فقال :

ولولا الحياء لعادني استعبار	ولزرت قبرك والحبيب يزار
ولقد نظرت ، وما تمتع نظرة	في اللحد حيث تمكن الحفار
وهأت قلبي اذ علتني كبرة	وذوو السماء من بنيك صغار
ارعى النجوم وقدمضت غودية	تصب النجوم كأنهن صوار
نعم القرين وكنت علق فضة	وأرى بنفق بليه الأحجار
عمرت مكرمة المسالك وفارقت	ما مسها صلف ولا اقتار
كانت مكرمة العشير ولم يكن	يخشى غوائل ام حرزة جار
صلى الملائكة الذين تخيروا	والصالحون عليك والابرار
لا يلبث القمر ناء ان يتفرقوا	ليل يكر عليهم ونهار

فاعجبت رباب بعذوبة شعر جرير و بشاعريته الفياضة وديعة من هذا
هذا الوصف واخذت بقصيدته التي تنفجر نبلاً وعاطفة واخلاصاً والحت
على صديقنا طريف ان ينشدها بعض ما تعيه ذا كرتة من هذا الشعر الجميل
وراح صديقنا طريف ينشدها قصيدة محمود سامي البارودي التي نظمها في
رثاء زوجه عندما ورده نعيها وهو في المنفى :

ورد البريد بغير ما املته	تعس البريد وشاهوجه الحادي
فسقطت مغشياً علي كائما	نهشت صميم القلب حية وادي
ويألمه رزء اطار نعيه	بالقلب شعله مارج وقاد

ومنها :

أسلية القمرين اي فجيعه حلت لفقدك بين هذا النادر

اعزز علي بان اراك رهينة
او ان تبني عن قراره منزل
لو كان هذا الدهر يقبل فدية
قد كدت اقضي حسرة لو لم اكن
فعلبك من قلبي التحية كلها
ثم قال صديقنا طريف :

« لقد كف بصر زوج الاستاذ مصطفى لطفي المنفلوطي الأديب العربي
المعروف ومع ذلك فقد ظل على وفائه واخلاصه لها الى ان استل
من الحياة واستلّت الحياة منه . واخشى يا رباب ان اكون اثقلت عليك
في ضرب الامثال على اخلاص الرجل للمرأة ولا ريب ان المرأة مخلصه للرجل
ما دام الرجل مخلصاً لها وهي بلا ريب مصدر العاطفة الانسانية والرحمة
والحنان ويضيق بي المقام يا رباب لا ضرب لك الامثال على اخلاص المرأة
للرجل ووفائها له ، وعلى المرأة ان تتفاخر بمربية « هلنكلد » تلك السيدة
التي ضربت المثل الاعلى في الانسانية ونبل الخلق وكرست حياتها على
خدمة « هلنكلد » واسعادها والترفيه عنها . وهناك نساء كن السواعد
اليمنى لبعولتهن الحياة . » !!!

ولما انتهى صديقنا من حديثه قالت رباب :

« لماذا يا طريف حمل الامام علي كرم الله وجهه على المرأة وتقم عليها
نقمة شديدة وهو من آل البيت والاسلام دين أنصف المرأة وأنزلها المكانة
اللائقة بها في المجتمع » فقال صديقنا طريف :

« لم يكن الامام علي كرم الله وجهه يا رباب اول من تقم على المرأة بل تقم عليها معظم فلاسفة الاسلام ولم ينصفها بعض الانصاف الا الخوارج والمؤرخ الاجتماعي ابن خلدون . ان رأي الامام علي كرم الله وجهه يا رباب في المرأة سيء جداً وهو رأي شخصي بحث وليد الحالة السياسية في ذلك الوقت ونحن لا نقر هذا الرأي ولا تقبله كقاعدة اجتماعية تبنى عليها الاحكام التي تعرف بها المنزلة الحقيقية للمرأة في تاريخ الفكر الانساني ومدى اثرها في تطور حياة المجتمع البشري » وما كاد صديقنا طريف يفرغ من حديثه حتى قالت له رباب :

« امكروهة الغيرة ام مستحبة يا طريف ؟ »

فقال صديقنا طريف :

« لا يمكننا يا رباب ان نعت الغيرة بالتبجح أو الجمال . ولو عاجلنا الغيرة من الناحية الفلسفية لرأيناها لا تدل الا على ضعف في نفس صاحبها لكن لها قيمة خطيرة في حياة البشر . ولقد عرفت مارلي كورلي الغيرة بقولها : الغيرة كالحب وهي احدى القوات المحركة للكون الى الامام في حد ذاتها ، هي شر مريع غير انها لازمة لزوم المأكل والمشرب للجسد والاساد الفتور والتراخي بين الناس » ثم قال صديقنا طريف :

« ارى ان اعود ادراجي الى منزلي يا رباب لان موعد النوم قد حان وطال حديثنا وقال الرسول الاعظم صلى الله عليه وسلم : زرغباً تزدد حباً . وقال ابو تمام :

وطول مقام المرء في الحيّ مخلّقٌ
فاني رأيت الشمس زيدت محبةً
لديباجتيه فاغترب تتجدد
الى الناس ان ليست عليهم بسرمد

الفصل الثالث

جولات في الشعر الغزلي

وذات مساء كانت رباب تقرأ لصديقنا طريف ما شاء من كتب
وصحف ولما انتهت من القراءة وجاء دور المسامرة قالت :
« أيعشق الانسان مكرها ام مختاراً ، وهل في العشق عارٌ يا طريف ؟
وكيف تكون حالة العاشق ؟ . » فصمت صديقنا طريف طويلاً وقال :
« لقد سبق لي يا رباب ان حللت هذه المشكلة وأرى ان تعودني الى
الفصل الاول من كتابي « الحب والجمال ومقالات اخرى » وانت اذا
عدت الى هذا الكتاب ستجدني فيه الجواب الكافي على ما يجول في
خاطرك من أسئلة وتظفرين بضالتك المنشودة . » واستطرد صديقنا طريف
في حديثه وقال :

« لا حيلة يا رباب للعاشق في ان يعشق او لا يعشق وليس في العشق
عار . وراح ينشد رباب قول ابي نواس في العشق فقال :
اني عشقت وما بالعشق من باس ما مرّ مثل الهوى شيء على راسي
مالي وللناس كم يلاحونني سفهاً ديني لنفسي ودين الناس للناس
ثم انبدها قول ابي نواس في حالة العاشق فقال :

حاملُ الهوى تعبُ يستخفه الطربُ
ان بكى 'يَحَقُّ له ليس ما به لعبُ
كلما انقضى سببُ منك عادلى سببُ
تعجبين من سقمي صحتي هي العجب
تضحكين لاهيةً والمحِبُّ ينتحبُ

ولما فرغ صديقنا طريف من كلامه قالت له رباب :

« هل تستطيع يا طريف ان تلمس الفرق بين القبح والجمال وكيف تدرك ان هذه الفتاة جميلة وتلك الفتاة قبيحة ؟ » فابتسم صديقنا طريف وقال : « اشعر في قرارة نفسي يا رباب بالقبح والجمال ولمس الفرق بينهما واذا ما جلست مع فتاة وتبادلت معها اطراف الحديث ادرك انها جميلة اذا كانت حقاً جميلة وكذلك أدرك انها قبيحة اذا كانت حقاً قبيحة . اما كيف ادرك ذلك يا رباب فلا استطيع تحديده وكل ما يمكنني ان ا قوله في هذه المسألة انني اعتقد ان ذلك يعود الى شعورٍ داخلي ذلك الشعور الذي ينبثق عن قوة الخيلة وهو أشبه بالايحاء . »

وكانت رباب على جانب وافر من الجمال ذات جاذبية مغناطيسية لها اثرها الفعال في عقول الرجال . وكانت تعتد بنفسها وتعجب بشخصيتها اعجاباً يصل بها الى حد الغرور والكبرياء . وكانت تظن ان صديقنا طريف لا يدرك انها جميلة او قبيحة لانه لا يبصر وكيف يمكن من فقد النور من عينيه ان يدرك الجمال والقبح وان يفرق بينهما . ولكن صديقنا طريف ادرك منذ الوهلة الاولى ان محدثه رباب جميلة جذابة ومغرورة

متفرجة ولكنه كان لا يشير الى شيء من هذا القبيل ويتجاهل كل شيء
لأنه لا فائدة له فيه ولا جمل . وكان صريحاً يحب الصراحة ويمقت المجاملة ولا
يحب ان يجامله الناس ويكره ان يجاملهم .

و ذات ليلة كانت رباب تقرأ لصديقنا طريف بعض الكتب الأدبية
والمقالات السياسية ولما انتهت من القراءة قالت انا احب جري يا طريف
وكيف لا احبه وهو القائل :

ان العيون التي في طرفها حورٌ قتلنا ثم لم يحين قتلانا
يصر عن ذا اللب حتى لا حراك به وهن اضعف خلق الله انسانا
ولما أنشدت رباب هذين البيتين من الشعر ادرك صديقنا طريف
الفن الأدبي الذي يوافق مزاج حنان وتعبه وتحب الاحاديث عنه مهما
طالت تلك الاحاديث ومهما كثرت فضحك صديقنا طريف ملء شذقيه
وقال في نفسه صدق الشاعر القائل :

خدعوها بقولهم حسناء والغواني يغرهن الثناء
ثم انشد صديقنا طريف ما حضره من شعر الاخطل في النساء ليغيظ
به رباب وكانت متحمسة للمرأة تكره من يكرهها وتكره وتحتفي بمن
يدافع عن المرأة ويمجدها فقال :

كذبتك عينك ام رأيت بواسط
غلس الظلام من الرباب خيالا
وتعرضت لتروعننا جنية
والغانيات يرينك الاهوالا

واذا وزنت حلومهن مع الصبا
 رجح الصبا بحلومهن فمالا
 واذا رأيت كمكرهن اذا بدا
 فينا ولا كجباهن حبلا
 يرعين عهدك ما رأيك شاهداً
 فاذا بذلت يصرف عنك فوالا
 واذا وعدتك قائلاً اخلفنه
 ووجدت عند عاداتهن وطالا
 واذا دعونك عمهن فانه
 نسب يزيدك عندهن خبالا

وما كاد صديقنا طريف يتم انشاد هذه الايات حتى قالت له رباب:
 « ليسف هذه الايات من شعر الاخطري طريف لأنها ايات معقدة
 والاخطل شاعر اموي واغلب الظن ان هذه الأيات من الشعر الجاهلي »
 وراح صديقنا طريف يقنع رباب ويثبت لها ان هذه الأيات من شعر
 الأخطل لكنها قالت له :

« ما لنا وللشعر الجاهلي وما لنا ولشعر الاخطل . فانا لا استسيغ هذا
 النوع المعقد من الشعر ولقد قرأت معلقة عنتره العبسي وهو شاعر جاهلي
 فما استسغت من ابياتها ولا وافق ذوقي منها سوى بيتان اثنان وراحت تنشد:
 ولقد ذكرتُك والرماحُ نواهل

مني ويبض الهند تقطر من دمي

فوددت تقبيل السيوف لانها

لمعت كبارق ثغرك المتبسم

ثم قالت اني اكره الشاعر العباسي حبيب بن أوس الطائي واقبح
شعره لانه اكثر تعقيداً وصعوبة من الشعر الجاهلي لكثرة ما فيه من
تشابه واستعارات وتورية وكنيات ومفردات غريبة وكل ما اعجبني من
شعر ابي تمام قوله :

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى

ما الحب الا للحييب الاول

كم منزل في الأرض يألفه الفتى

وحنيه ابداً لاول منزل

فقال صديقنا طريف :

« كان حبيب بن اوس الطائي يغوص على المعاني وكانت المعاني لا
تأتيه عفواً ودون تكلف ولذلك كان شعره معقداً غامضاً لا يفقهه الا
الراسخون في الأدب وعلم البيان والبديع وفطاحلة البلاغة والصرف وان
خصائص شاعرنا لا تطبق على هذين البيتين ولو تناول النقاد هذين البيتين
ونقدوهما فانهم ينفون نسبتها لابي تمام وان صحت روايتهما له » ثم قال
صديقنا طريف :

« كان ابو تمام يا رباب قوي الفكر غزير المعاني كثير الابتكار وكان
يتعمد الاغراب وشعره مزدحم بالطباق والجناس وتغلب عليه الصناعة اللفظية
ومع ذلك فان شعره جميل » ثم انشد صديقنا طريف رباب ما نظمه ابو

تمام في وصف القلم وهو وصف رائع فقال :

لك القلم الأعلى ، الذي بشباته تصاب ، من الأمر ، السكلى والمفاصل
لعاب الأفاعي القاتلات لعابه وأري الحبن اشتارته أيد عواسل
له رقة وطل ولكن وقعها بأثاره في الشرق والغرب وابل
فصيح اذا استنطقته وهو راكب واعجم ان خاطبته وهو راجل
اذا ما امتطى الخمس اللطاف وافرغت عليه شعاب الفكر وهي حوافل
اطاعته اطراف القنا وتقوضت لنجواه تقويض الخيام الجحافل
اذا استعزز الذهن الذكي وأقبلت اعاليه في القرطاس وهي اسافل
وقد دمرته الخنصران وسددت ثلاث نواحيه الثلاث الانامل
رأيت جليلاً شأنه وهو مرهف غنى وسمينا خطبه وهو ناهل
وما كاد صديقنا طريف ينتهي من انشاد هذه الأبيات حتى قالت

ر باب : « الحقيقة يا طريف ان معظم شعراي تمام لا يفهم ولا يستساغ »
فقال صديقنا طريف :

« انصحك يا رباب ان لا تقرأي ما لا تفهمين . ولا يؤخذ على ابي
تمام ان يقول ما لا يفهمه الناس بل يؤخذ على الناس ان لا يفهموا ما
قال ابو تمام وأمثاله » . وراح صديقنا طريف يقص على مسامع رباب قصة
امرئ القيس وابنة عمه التي يسميها في معلقته تارة بعنيزة وتارة بفاطمة . ثم
انشد صديقنا طريف رباب قسما من معلقة امرئ القيس فقال :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل
كاني غداة البين يوم تحملوا لدى سمرات الحي ناقف حنظل

ففاضت دموع العين مني صباية
ويوم عقرت للعداري مطيتي
فظل العداري يرتمين بلحمها
ولما دخلت الخدر خدر عنيزة
تقول وقد مال الغبيط بنا معاً
فقلت لها سيري وارخي زمسامه
افاطم مهلاً بعض هذا التدلل
اغرك مني ان حبك قاتلي
وما ذرفت عينك إلا لتضربي
فان كنت قد ساءت مني خليفة
وبيضة خدر لا يرام خباؤها
تسلت عمايات الرجال عن الهوى
ولما انتهى صديقنا طريف من انشاد الايات الغزلية من معلقة امرئ القيس قال :

« هذه ايات من شعر امرئ القيس وهو شاعر حضري وجداني
ويلقبه النقاد رأس الشعراء القدماء يا رباب ثم انشدها البيت الذي وصف
به امرؤ القيس جواده قال :

مَكْرَرٍ مَقْرَرٍ مَقْبَلٍ مَدْبِرٍ مَعاً كَجَلْمُودٍ صَخْرٍ حَطَّهُ السَّيْلُ مِنْ عَلٍ
ثم انشدها الايات التي وصف بها امرؤ القيس الليل فقال :

وليل كموج البحر ارخس سدوله علي بأنواع الهموم ليبتلي

فقلت له لما تمطى بصلبه واردف اعجازاً وناء بكل كل
الا ايها الليل الطويل الا انجلي بصبح وما الا صياح منك بامثل
فيا لك من ليل كأن نجومه بكل مغار القتل شدت يمدبل
وذات مساء كانت رباب تقرأ لصديقنا طريف رباعيات عمر الخيام
ولما انتهت من قراءتها قالت :

« يبدولي يا طريف ان عمر الخيام كان زنديقاً فاسقاً واكبر الظن انه
كان ملحداً لا يدين بدين ولا يقر بالالوهية » ثم قالت :
« دعنا يا طريف من عمر الخيام وزندقته وحدثنا عن خفة روح الشاعر
الا كمه بشار بن برد لنرفه عن نفسنا لاني مللت القراءة من رباعيات عمر
الخيام ولزوميات المعري وجسيم دانتي وسفسطة سقراط وارسطو وافلاطون
وغيرهم من فلاسفة اليونان واظن انك يا طريف مللت مثلي من مطالعة
هذا النوع من الكتب » فافترثغر صديقنا طريف عن ابتسامة لا تتم عن
الرضى لحديث رباب والاطمئنان له ، وراح صديقنا طريف يتحدث رباب
عن خفة روح بشار بن برد فقال :

أجمع الناس يا رباب على ان بشاراً كان زنديقاً وقد قتل بحجة الزندقة
والاحاد . وليست الزندقة يا رباب التظاهر بالاسلام وابطان الميل لغيره من
الديانات بل هي الاستهزاء بالفروض الدينية . كقول الزنادقة من ان يقبل
الصلوات الخمس متفرقة يقبلها جملة ولا ريب ان بشاراً كان زنديقاً الا أنه
لم يقتل من اجل الزندقة والاحاد بل قتل لانه تعرض للسياسة ولهجاء الخليفة
والوزير » ثم قال صديقنا طريف :

« لا شك يا رباب في ان بشاراً كان خفيف الروح ، حلو الحديث وراح يقص عليها قصة الاعرابي الذي سأل بشاراً عن موقع بيت احد الناس وكيف ان بشاراً اخذ يدل ذلك الاعرابي على ذلك المنزل فلم يفهم الاعرابي من بشار فأمسك بشار بيده وقاده الى المنزل وهو يقول :

اعمى يقود بصيراً لا ابا لكم قد ضلّ من كانت العميان تهديه
ثم قال بشار للاعرابي (هذا هو البيت يا اعمى) ثم انتقل صديقنا طريف الى الحديث عن الهزل والتهمك عند بشار فقال :

« قيل يا رباب ان بشاراً كان له حمار وبعد ان مات حماره رآه في منامه وقال له « لم مت الم اكن احسن اليك » ثم انشد قائلاً :

سيدي خذ بي أتاناً	عند باب الاصبهاني
تيمتي بينات	وبدلّ قد سباني
تيمتي يوم رحنا	بثناياها الحسان
وبغنج ودلال	سل جسمي وبراقي
ولها خد اسيل	مثل حب الشيفراقي
فلذا مت ، ولو عشت	إذا طال هواني

ثم انشد زميلنا طريف ما قاله بشار في جاريته « رباب » قال :

ربابة ربّة البيت	تصب الخل في الزيت
لها عشر دجاجات	وديك حسن الصوت

وما كاد صديقنا طريف ينتهي من انشادهذين البيتين حتى قالت

له رباب :

« يبدوا ان بشاراً كان يحب اكل البيض » فابتسم صديقنا طريف

وقال :

« يروى عن بشار يا رباب انه كان يحب اكل البيض وكان لا يأكله الا من بيض دجاجات جاريته رباب ، وكانت رباب تحب الأدب والإدباء ولا سيما الغزليين منهم » وألحّت على صديقنا طريف ان يحدثها عن فن الغزل عند بشار بن برد ، فقصّ عليها صديقنا طريف قصة بشار ومعشوقته عبدة وراح ينشدها بعض ما نظمه بشار في معشوقته فقال :

يا عبد يا جافية قاطعة	أما رحمت المقلة الدامعة
يا عبد خافي الله في عاشق	يهواك حتى تقع الواقعة
يا عبد حبك شفّني شفاً	والحب داء يورت الختفا
والحب يخفيه الحب لكيلا	يستراب به فلا يخفى
يا عبد اني اليك بالاشواق	لتلاقٍ وكيف لي بالتلاق
انا والله اشتهي سحر عينيك	واخشى مصارع العشاق
لم يطل ليلى ولكن لم انم	ونفى عني الكرى طيفاً ألم
ان في بردي جسماً ناحلاً	لو توكأت عليه لانهدم
واذا قلت لها «جودي لنا»	خرجت بالصمت عن لا ونعم

فأخذت رباب بغزل بشار واستغربت ان يشتهي الشاعر الأكمه

بشار بن برد الذي لم ير الدنيا قط سحر عيني معشوقته عبدة . وقالت :

« انك يا طريف شاب ناهض واسع الاطلاع وحديثك طلي وممتع

فهل لك ان تحدثنا عن شاعر الحمريات الحسن بن هانيء المعروف بابي نواس »

فقال صديقنا طريف :

« لقد طرق ابو نواس يا رباب فنونا كثيرة من الشعر ويضيق بي الوقت ان احدثك عن بعضها في هذه الجلسة القصيرة وقد ولى الهزيع الاول من الليل وحن وقت النوم » فقالت رباب :

« اذا لم يبق لديك من الوقت ما تحدثنا فيه عن ابي نواس فحدثنا عن كتاب البخلاء للجاحظ فاني مغرمة بسماع قصص البخلاء وان كانت من باب الاقاصيص والخرافات » فحار صديقنا طريف والى نفسه في مأزق حرج لانه لم يحفظ قصة من قصص البخلاء التي اوردها الجاحظ في كتابه « البخلاء » فقال وحمرة الخجل تعلو محياه :

« لا اذكر قصة من قصص كتاب البخلاء للجاحظ امكن في هجاء ابي النواس مقطعات هجا بها الحسن بن هانئ بعض البخلاء » فقالت رباب :
« هل لك يا طريف ان تسمعنا ما تحفظه من هذه المقطعات فأنشد صديقنا ما حفظه من شعر ابي نواس في البخلاء فقال :

خبز الخصيب معلق بالكوكب يحمى بكل مثقف ومشطب
جعل الطعام على بنه محرماً قوتاً وحله لمن لم يسغب
فاذا هم نظروا الرغيف تطربوا طرب الصيام الى اذان المغرب

خبز اسماعيل كالوشي اذا ما انشق يرثى

رغيف سعيد عنده عدل نفسه يقلبه طوراً ، وطوراً يلاعبه

ويخرجه من كمه فيشمه ويجلسه في حجره ويخاطبه
وان جاءه المسكين يطلب فضله فقد تركه أمه واقاربه
يكر عليه الصوت من كل جانب وتكسر رجلاه وينتف شاربه
ثم انشد صديقنا طريف رباب قول ابي النواس في العباسية اخت
الرشيد فقال :

الا قل لامين الله وابن القادة الساسه
اذا ما ناكث شرك انت تفقده رأسه
فلا تقتله بالسيف وزوجه بعباسه
وانشدها ايضاً هجاء ابي النواس للفضل بن يحيى فقال :
بما اهجوك ؟ لا ادري لساني فيك لا يجري
اذا فكرت في عرضك أشفقت على شعري
ولما فرغ صديقنا طريف من حديثه عن ابي نواس اخذت
رباب بشاعرية شاعرنا واعجبت بخفة روحه وبوصفه الجميل وقالت :
« اني احب الادب يا طريف فهل لك ان تحدثني عن فن الغزل في
الادب العربي » .

فسرد صديقنا طريف على مسامع رباب موجز ترجمة عمر بن ابي ربيعة
الخنزومي وقص عليها قصص تعرضه للحواج وقصصه مع الثريا وهند
ونعم وروى لها حديثه مع سليمان بن عبد الملك عندما قال سليمان بن
عبد الملك لعمر « لم لا تمدحنا يا عمر » فأجاب عمر « انا لا امدح الا
النساء » وراح صديقنا طريف ينشد لرباب قصيدة عمر الرائية المشهورة قال :

امن آل نعم انت غاد فمبكر
لحاجة نفس لم تقل في جوابها
نهم الى نعم فلا الشمل جامع
ولا قرب نعم ان دنت لك نافع
قفي وانظري اسماء هل تعرفينه
اهذا الذي اطريت نعتاً فلم اكن
فقلت نعم لا شك غير لونه
لئن كان اياه لقد حال بعدنا
وراح صديقنا طريف ينشد رباب قصيدة عمر بيتاً بيتاً حتى اتي عليها
كلها وهي قصيدة تقع في نيف وخمسين بيتاً . ولما انشد صديقنا طريف
الايات التي تصور مكر النساء وحيلهن الحت عليه رباب ان يعيدما انشد
فانشدها اكثر من مرة الايات التالية :

أقص على اختي بدء حديثنا ومالي من ان تعلم متأخر
لعلها ان تطلبها لك مخرجاً وان ترجها سرباً بما كنت احصر
فقامت كئيباً ليس في وجهها دم من الحزن تذري عبرة تتحدر
فقلت لاختيها : اعينا على فتى اتي زائراً والامر للامر يقدر
فقامت اليها حركات عليهما كساء ان من خز دمه قس واخضر
فاقبلتا فارتاعتا ثم قالتا «أقلي عليك اللوم فالخطب ايسر»

فقلت لها الصغرى : سأعطيه مطر في

ودرعي وهذا البرد ان كان يحذر

يقوم فيمشي بيننا متنكراً
فكان مجنيّ دون من كنت اتقي
فلما اجزنا ساحة الحي قلن لي :
وقلن : اهذا دأبك الدهر سادراً
اذا جئت فامنح طرف عينك غيرنا
فآخر عهد لي بها حيث اعرضت
هنيئاً لاهل العامرية نشرها
ثم انشدها قول عمر :

ليت هنداً انجزتنا ما تعد
واستبدت مرة واحدة
زعموها سألت جاراتها
اكما ينعتني تبصرني
غادة يفر عن اشنبها
وراح ينشد القصيدة بيتاً بيتاً حتى أتى عليها كلها وكانت الايات
التي أعاد انشادها صديقنا طريف مرات ومرات :

نحن اهل الخيف من اهل منى ما لمقتول قتلناه قود
قلت « اهلاً » انتم بغيتنا قسمة بين ، فقالت « انا هند »
انما اهلك جيران لنا . انما نحن وهم شيء احد
كلما قلت متى ميعادنا ضحكك هند وقالت « بعد غد »
فبدت على محيا رباب بواذر الجبور وناولت صديقنا طريف كأساً
من عصير البرتقال وتناولت هي كأساً وراحت تحدث صديقنا عن قيس

وليلي وعن قيس ولبنى وعن روميو وجولييت وراح هو يحدثها عن جميل
بن معمر وبثينة وعن كثير عزة وعن قيس بن عبد الله الرقيات . ثم
قص صديقنا طريف على مسامع رباب قصة ابي الحسن بن زريق البغدادي
الشاعر المشهور مع ابنة عمه وانشدها قصيدته التي وجدت مكتوبة في رقعة
تحت وسادته ليلة ان قضى نحبه فقال :

لا تعذليه فان العذل يولعه قد قلت حقاً ولكن ليس يسمعه
جاوزت في لومه حداً اضر به من حيث قدرت ان اللوم ينفعه
فاستعملي الرفق في تأنيبه بدلاً من عنفه فهو مضى القلب موجهه
قد كان مضطرباً بالخطب يحمله فضيقت بخطوب البين اضلعه
يكفيه من لوعة التنفيذ ان له من النوى كل يوم ما يروعه
وراح صديقنا طريف ينشد القصيدة بيتاً بيتاً حتى أتى عليها كلها
لكنه اضطر الى ان ينشد الايات التالية مرات ومرات :

استودع الله في بغداد لي قرأ بالكرخ من فلك الازرار مطلعته
ودعته ، وبودي لو يودعني صفو الحياة واني لا اودعه
وكم تشفع اني لا افارقه وللضروريات حال لا تشفعه
وكم تشبث بي يوم الرحيل ضحى وادمعي مستهلات وادمعه
لا اكذب الله ثوب العذر منخرق عني بفرقة لكن ارقعه
اني اوسع عذري في جنايته بالبين عنه ، وقلبي لا يوسع
اعطيت ملكاً فلم احسن سياسته كذاك من لا يسوس الملك يخلعه
ومن غدا لا بساً ثوب النعيم بلا شكر الاله فعنه الله ينزعه

أَعْتَصَمْتُ عَنْ وَجْهِ خَلِيٍّ بَعْدَ فِرْقَتِهِ
كَاسًا أَجْرَعُ مِنْهَا مَا أَجْرَعُهُ
كَمْ قَاتِلٌ لِي دَقَّتْ الْبَيْنَ قَلْتُ لَهُ الذَّنْبُ وَاللَّهُ ذَنْبِي لَسْتُ أَدْفَعُهُ
لَا يَطْمَئِنُّ لُجْنِي مُضْجَعٌ وَكَذَا لَا يَطْمَئِنُّ لَهُ مَذْبَنٌ مُضْجَعُهُ
مَا كُنْتُ أَحْسَبُ أَنَّ الدَّهْرَ يَفْجَعُنِي

بِهِ وَلَا أَنَّ بِي الْأَيَّامَ تَفْجَعُهُ
حَتَّى جَرَى الدَّهْرُ فِيمَا بَيْنَنَا بَيْدٍ عَسَاءَ تَمْنَعُنِي حَظِي وَتَمْنَعُهُ
بِاللَّهِ يَا مَنْزِلَ الْقَصْرِ الَّذِي دُرِيسَتْ آثَارُهُ وَعَفَّتْ مَذْبَنَتُ أَرْبَعَهُ
هَلْ الزَّمَانُ مَعِيدٌ فَيْكَ لَدُنَّا أَمْ اللَّيَالِي الَّتِي أَمَضْتَهُ تُرْجَعُهُ
فِي ذِمَّةِ اللَّهِ مَنْ أَصْبَحَتْ مَنْزِلُهُ وَجَادَغِيثٌ عَلَى مَغْنَاكَ يَمْرُغُهُ
مَنْ عِنْدَهُ لِي عَهْدٌ لَا يَضِيعُهُ كَمَا لَهُ عَهْدٌ صَدَقَ لَا أَضِيعُهُ
لَأَصْبِرَنَّ لِدَّهْرِ لَا يَمْتَنِعُنِي بِهِ ، وَلَا بِي فِي حَالٍ يَمْتَنِعُهُ
عِلْمًا أَنَّ أَصْطَبَارِي مَعْقَبٌ فَرَجًا وَاضِيقَ الْأَمْرِ أَنْ فَكَّرْتُ أَوْسَعُهُ
عَلَّ اللَّيَالِي الَّتِي أَخْنَتُ بِفِرْقَتِنَا

جَسْمِي سَتَجْمَعُنِي يَوْمًا وَتَجْمَعُهُ
وَأَنْ تُنَلَّ أَحَدًا مِمَّا مَنِيَّتُهُ فَمَا الَّذِي بِقِضَاءِ اللَّهِ يَصْنَعُهُ
ثُمَّ حَدَّثَ صَدِيقُنَا طَرِيفًا رِبَابَ عَنِ الْوَزِيرِ بْنِ زَيْدُونَ وَعَنْ مَحْبُوبَتِهِ
وَلَا دَتَهُ وَانْشَدَهَا قَصِيدَةُ ابْنِ زَيْدُونَ فِي وَلَا دَتَهُ فَقَالَ :

أَضْحَى التَّنَائِي بِدِيلًا مِنْ تَدَانِينَا وَنَابَ عَنِ طَيْبِ لَقِيَانَا تَجَافِينَا
بَنِمَّ وَبِنَا فَمَا ابْتَلَمْتُ جَوَانِحُنَا شَوْقًا إِلَيْكُمْ وَلَا جَفَّتْ مَا قِينَا

تكد حين تناجيكم ضمائرنا يقضي علينا الأسى لولا تأسينا
حالت لبعدم ايامنا فعدت سوداً وكانت بكم ييضاً ليايينا
اذ جانب العيش طلق من تألفنا وموردُ اللهو صافٍ من تصافينا
واذ هصرنا غصون الأنس دانية قطوفها فجنينا منها ما شينا
ليسق عهدكم عهد السرور فما كنتم لارواحنا الاً رياحيننا
وراح صديقنا طريف ينشد القصيدة بيتاً بيتاً حتى اتى عليها كلها
وألحّت عليه رباب ان يعيد انشاد الأبيات الآتية فنزل عند رغبتها
واعادها مرّات ومرّات :

ان الزمان الذي ما يزال يضحكننا أنساً بقربكم قد عاد يميننا
غيظ العدى من تساقينا الهوى فدعوا بأن تغصّ فقال الدهر آمينا
فأنحل ما كان معقوداً بأنفسنا وانبت ما كان موصولاً بأيدينا
وقد نكون وما يخشى تفرقنا فاليوم نحن وما يرجى تلاقينا
لم نعتق ببعدم الا الوفاء لكم رأياً ولم نتقلد غيره ديننا
لا تحسبوا نأىكم عنا يغيرنا ان ظالما غير النأي الحيينا
والله ما طلبت أهواؤنا بدلاً متكم ولا انصرفت عنكم امانينا
ويا نسيم الصبا بلغ تحيتنا من لوعلى البعد حيا كان يحيينا
يا روضة طالما أجنّت لواحظنا ورداً جلاه الصبا غصاً ونسرينا
لسنا نسيمك اجلالاً وتكرمة فقدرك المعتلي عن ذاك يغنيننا
يا جنة الخلد ابدلنا بسلسلها والكوثر العذب زقوماً وغسلينا
دومي على العهد ما دمنا محافظةً فالحر من دان انصافاً كما ديننا

عليك مني سلام الله ما بقيت صباة منك نخفيها فتخفينا
ولما انتهى صديقنا طريف من انشاد هذه الأبيات قالت رباب
والبشر يطفح من محياها :

« حقاً يا طريف ان هذه القصائد التي اسمعنا بعض ابياتها من عيون
الشعر العربي ومن غرائر آدابنا الحية » ثم قالت :
« أن أبي ربيعة شاعر غزلي مطبوع وان شعره القصصي ممتع واسلوبه
طلي ولغته سهلة ميسورة لا تعقيد فيها ولا غموض . واننا لا نجد امثال
شاعرنا عمر فاتح باب القصص الغرامي في الشعر العربي بين ادبائنا في
العصر الحديث . وان قصيدة الحسن علي بن زريق البغدادي وقصيدة بن
زيدون تقيضان رقة وعدوبة وألماً ووفاءً وقد حوتا من جمال التصوير
ودقة التعبير ما لا يوصف وما لا نلمسه في شعر من عاصرها من الشعراء
ولا في شعر شعراء هذه الايام . » !!!

الباب الخامس

أحاديث في الحضارة العربية

الفصل الاول

حقائق يجب ان تعرف



قالت رباب وهي تحاور صديقنا طريف وتبتسم :

« يتجاهل المغرضون يا طريف الحضارة العربية وتاريخ الفكر العربي . ويزعمون ان الفلسفة العربية فلسفة يونانية كتبت باحرف عربية فهل لك ان تنفي هذا الزعم او تثبته ؟ وهل يستند زعم المكابرين الى حقيقة ثابتة او الى شيء من الحقيقة ؟ أم هو تجاهل للتاريخ وتعامٍ عن حقائقه ؟ »
فابتسم صديقنا طريف وقال :

« لا يخلو هذا الزعم من التجاهل المغرض والمكابرة والتعامي عن الحقائق التاريخية . ولا يستطيع المؤرخ الامين ان يتجاهل الحضارة العربية وتاريخ الفكر العربي وأثرهما في الحضارة الاوروبية وتاريخ الفكر الاوروبي . وما من احد يستطيع ان يتجاهل أثر الامام محي الدين الغزالي حجة الاسلام والفارابي وابن سينا والمؤرخ الاجتماعي ابن خلدون وابن طفيل

وابن رشد وسواهم من فلاسفة الاسلام في الفلسفة الاوروبية والفلاسفة
الاوروبيين . ونحن لا فنكر يا رباب ان فلاسفة الاسلام نقلوا الفلسفة
اليونانية الى اللغة العربية ودرسوها وزادوا عليها . ويرجع الفضل الاول
للعرب في معرفة اوروبا الى الفلسفة اليونانية والتراث اليوناني ثم اخذ عنهم
الاوروبيون ولولا العرب ما استطاعت اوروبا ان تظفر من تاريخ الفكر
اليوناني بشيء » ولأنتقل بك يا رباب الآن الى الحديث عن الحضارة
العربية والدور الذي مثّته في التاريخ بعد ان مهدت لهذا الدور بمقدمة
موجزة .

« ومن ابرز مظاهر سياسة التفرقة العنصرية التي انتهجها وينتهجها
المستعمرون ، تجاهلهم الدور الذي مثّله الحضارة العربية في نهضة العالم
الحديث .

ان التجاهل المغرض للحضارة العربية يا رباب ولا أثرها في الحضارة
الحديثة انما هو تشويه للحقائق التاريخية يقصد به تجاهل حقيقة راهنة .
وهذه الحقيقة التي يتجاهلها المغرضون هي مساهمة الامة العربية الفعالة في
فترات تاريخية معينة بين العصور القديمة وعصر النهضة الحديثة في التقدم
الانساني في جميع ميادين الفكر والتكنيك .

ويبدو لي يا رباب أن الطالب الاوروبي حين تساوره الرغبة في درس
الفتوحات العربية يشعر وهو يقرأ ما وضع بين يديه من كتب صغيرة
مختصرة ، بأنه امام سر عجيب او معجزة خارقة ، ولا يجد من يفسر له
اسباب او نتائج تلك العاصفة البشرية التي امتدت في خلال سنوات معدودة

من بحر الصين الى المحيط الاطلنطي .

على اننا يا رباب اذا القينا من وراء ظهورنا بالتعرض الاستعماري والعرقى
بدت لنا هذه الحقيقة الساطعة وهي :

ان الاسلام ، حتى قبل ازدهار ثقافته الخاصة ، قد اوجد ، بفتوحاته
الواسعة نفسها ، الظروف الضرورية لتجديد الحضارة ، ولتجديد نهضة
العالم . وعلاوة على هذا يا رباب تحطيم الفتح العربي لحكم الاقطاع بايجاد
هذا الفتح الظروف الاقتصادية والاجتماعية المؤاتية المهمة التي قام بها بازالة
الفوضى الاقطاعية وطبقاتها الطفيلية . وفي سنة ١٨٦١ يا رباب قبل ان
تتمخض مطاعم الاستعمار وتنطلق نزعاته لاقتراس الشعوب الضعيفة ، وحينما
كان المؤرخون الاسبانيون لا يترددون في تمجيد تراث الاسلام ، كتب
المستشرق الكبير دوزي في الصفحة ٤٣ من الجزء الثاني من كتابه « تاريخ
المسلمين في اسبانيا » .

« لقد كان الفتح العربي نعمة بالنسبة لاسبانيا ، لانه ادى الى ثورة
اجتماعية مهمة ، وازال قسماً كبيراً من المساوىء التي كانت اسبانيا تنهت تحت
عبئها منذ عصور طوال »

ثم اوضح ذلك بقوله :

« كان العرب يحكمون بحسب المنهاج التالي : لقد خففوا عبء
الضرائب بالنسبة الى الحكام السابقين ، وانتزعوا من ايدي الاغنياء
الارض التي كان يتقاسمها الاقطاعيون ويزرعها الفلاحون او العبيد الناقمون
ووزعوها بالتساوي على من كانوا يشتغلون فيها ، فعكف الملاكون

الجدد على استثمار الارض بحماسة شديدة ، واستخرجوا منها محصولاً وافراً
أوفر من قبل . أما التجارة فقد تحررت من قيود الحدود والمكوس القاذحة
التي كانت ترهقها ، وتطورت تطوراً ملحوظاً . وكان القرآن يسمح للعبيد
بالتحرر لقاء تعويض منصف ، فبرزت من جراء ذلك قوى اجتماعية جديدة .
وقد افضت هذه التداير كلها ، الى حالة من الرخاء العام كانت الحافز
الاول للترحاب الذي استقبل به الحكم العربي في عهده الاول . «
يضاف الى هذا يا رباب ان الفاتحين العرب بازالة الحواجز التي اقامها
الاقطاع في حقل الاقتصاد ، وبإجادهم جواً جرى فيه تبادل البضائع والافكار
على نطاق اوسع من الجو الذي اوجدته الامبراطورية الرومانية القديمة ،
وبانشائهم امبراطورية موحدة مكررة خاضعة لقانون مكتوب ولادارة
حقوقية منظمة ، قد وضع العرب يا رباب الاسس الصالحة لتطور الأشياء
والناس والافكار تطوراً تمتاز به المراحل المبدعة التي اجتازتها البشرية ،
فاذا بالحضارة القديمة التي جمدت في بيزنطية تعاود تحليقها في آفاق
الامبراطورية العالمية الجديدة .

ولقد ظهرت فضائل الفتح ايضاً يا رباب ، في الجانب الآخر من
البحر الابيض المتوسط . وارى يا رباب ان استشهد بنصوص اوروية
ثبتت تقويم الفتح العربي في هذا الشطر من العالم ايضاً . فان اميراً من
امراء الكنيسة هو المونسنيور دوشين يسرد في معرض دراساته عن حياة
وحالة الكنيسة في سورية في غضون القرن السابع ، مقطعاً يستوقف
الانتباه لميشال السوري قال فيه عن الفتح العربي ، بعد ان ذكر الاضطهاد

الذي كابدته اولئك اليعاقبة الذين لم يقبلوا اتحاد هراقليوس :

« ... ان اله الانتقام ... وقد رأى شرور الرومان ، الذين كانوا ينهبون كنائسنا وأديرتنا ويقضون علينا في كل مكان انبسط سلطانهم عليه أرسل من الجنوب ابناء اسماعيل كي ينقذنا بواسطتهم ... ولم يكن بالفضل اليسير ، انقاذنا من قسوة الرومانيين ، ومن شرهم وغضبهم ومن حسدهم القظ ، والاخذ بيدنا الى ظلال الأمن والراحة التي ننشدها » ان أمثال هذه النصوص يا رباب الصادرة عن الاوروبيين أنفسهم لتحملنا على الاعتقاد بان أناتول فرانس لم يكن يصدر عن نزوة عابرة ، اذ قال بظرفه البارع في « الحياة الزاهرة » :

« سأل السيد دو بوا مرة السيدة توزيير ، ما هو أكثر ايام التاريخ شؤماً . فلم تستطع السيدة توزيير الاجابة على هذا السؤال . وحينئذ قال السيد دو بوا: ان أكثر ايام التاريخ شؤماً هو اليوم الذي جرت فيه معركة بواتيه في سنة ٧٣٢ ، حين تراجع العلم والفن العربيين والحضارة العربية ، امام البربرية الفرنكية »

بيد انه من الحق يا رباب ان نصصح هفوتين وردتا في هذا المقطع القصير :

١ - ان الحضارة العربية التي ازدهرت على ايام العباسيين في بغداد لم تكن قد وجدت بعد في سنة ٧٣٢ ، اي في سنة ١١٤ من الهجرة ، في عهد هشام بن عبد الملك الخليفة الاموي بدمشق .

٢ - ليس في وسعنا القول بأنه كان ثمة « تراجع » اسلامي في بواتيه.

فانه كانت هناك مناوشة قام بها العرب اثناء عودتهم من غزوة قاموا بها على سان مارتان دوتور .

ان غزوة عبد الرحمن الغافقي التي زحفت من الشمال الى الجنوب ، اصطدمت بشارل مارتل وهي في طريق العودة الى اسقانيا ، وقد اتاح الحظ لهذا الرجل مساعدة اود دوغوسكونيا الذي لولا نجدة آياه لما اتيح لشارل ان يصبح مارتل ابداً ! ولكن يبقى صحيح في كلمة اناطول فرانس ، ان فرنسا قد اضاعت في ذلك اليوم فرصة تاريخية للاشتراك في الحضارة العربية التي ازدهرت بعد ذلك بزمن وجيز ، اي انها فقدت فرصة تاريخية لاختصار عهد الفوضى الاقطاعية ، وتكوين وحدتها القومية ، فضاعت بذلك عدة عصور على فرنسا ، وضاع بعض الوقت على البشرية .

ونحن لا نفترض بقولنا هذا افتراضاً رخيصاً ، فان كاتباً من اعظم كتاب اسبانيا هو بلاسكوا يباير ، يشهد باسم وطنه في الصفحات ٢٠١ - ٢٠٤ من كتابه « في ظل الكاتدرائية » اذ يقول :

« ان الاسباب التي اعادت الى اسبانيا حيويتها وجددت شبابها ، لم تصلها عن طريق الشمال مع القبائل البربرية ، وانما جاءت من الجنوب مع العرب الفاتحين ... لقد كان الفتح العربي بعثة ممدنة اكثر مما كان فتحاً .. عن تلك الطريق وليس عن غيرها ، دخلت الى بلادنا هذه الثقافة الفتية ، القوية ، النشيطة ، اليقظة ، التي تبعث على الدهشة لتقدمها السريع ، والتي ما كادت تلد حتى انتصرت » . ان هذه الحضارة التي اوجدتها حماسة النبي

الدينية ، قد تمثلت احسن ما في اليهودية والعلم البيزنطي ، وحملت معها فوق ذلك ، التقاليد الهندية وتراث الفرس وكثيراً مما قبسته عن الصين الخافلة بالاسرار . فكان الشرق كله هو الذي دخل بواسطتها اوربا ، الا ان شأنه لم يكن شأن جنود داريوس (١) وسركيس (٢) التي دخلت اوروبا عن طريق اليونان لما صدتها هذه انقاذاً لحريتها ، اذا اقبل هذه المرة من الطرف الآخر من اوروبا ، « لا عن طريق اسبانيا التي كانت تعاني استعباد الملوك اللاهوتيين والاساقفة المحبين للقتال ، ففتحت ذراعيها لاستقبال العرب الفاتحين . وقد استولى هؤلاء العرب في غضون سنتين على مناطق اقتضت سبعة عصور لاستعادتها منهم . لانهم لم يكونوا يقومون في الواقع بغزوة تفرض ذاتها بقوة السلاح ، بل كانوا يؤلفون مجتمعاً جديداً يدفع اصوله القوية الى شتى الانحاء : وكان مبدأ حرية الضمير ، وهو حجر الزاوية الذي تقوم عليه عظمة الامم الحقيقية ، مبدأ مقدساً لديهم ، فكانت تقوم في المدن التي تولوا سيادتها . كنيسة المسيحي وكنيس اليهودي على السواء .

« ولقد نشأت في اسبانيا وتطورت ، منذ القرن الثامن الى القرن الخامس عشر ، اجمل واغنى حضارة وجدت في اوروبا باطول القرون الوسطى . فبينما كانت شعوب الشمال تتذابح في غمرة الحروب الدينية ، وتسلك سلوك القبائل الهمجية ، كان عدد سكان اسبانيا يرتفع الى ثلاثين

(١) داريوس: احد ملوك فارس وقد حكم من سنة ٥٢١ الى سنة ٤٨٦ ق.م.
(٢) سركيس: ابن داريوس وقد حكم على فارس من سنة ٤٨٥ الى ٤٩٥ ق.م.

مليون نسمة ، وكانت تمارج وتتفاعل في هذا الخضم من الناس ، جميع العروق والمعتقدات ، بتنوع لا حد له ، تصدر عنه اقوى النبضات الاجتماعية . . . وفي قلب هذا المزيج الخصب من الشعوب والعروق المختلفة ، كانت تزدهر جنباً الى جنب ، جميع الافكار والتقاليد وجميع المكتشفات التي حققها الانسان حتى ذلك العهد ، وجميع الفنون ، والعلوم والصناعات والمخترعات والانظمة ، ومن تصادم هذه العناصر المختلفة كانت تنبثق اكتشافات جديدة وقوى مبدعة جديدة .

« وقد حمل اولئك الغرباء معهم من بلاد الشرق ، الحرير والقطن والقهوة والليمون والرمان ، وحملوا السجاد ، وصنوف الانسجة والمعادن والبارود ، كما حملوا ايضاً التعداد العشري والجبر وفن تحويل المعادن والكيمياء والطب وعلم الفلك والشعر المنظوم . وكان فلاسفة الاغريق يوشكون ان يتلاشوا في ظلمة النسيان ، فأنقذهم العرب وساروا مع الفتح العربي الى كل مكان ، واستعاد اريسطو مكانته الرفيعة في جامعة قرطبة الشهيرة ... »

وهنا دهشت رباب من حديث صديقنا طريف واخذت بطلاوة هذا الحديث على حد قولها وراحت تصفق طرباً وفرحاً والغبطة تملأ صدرها والبشر يطفح من محياها وقالت :

« حدثنا يا طريف عن تراث الحضارة القديمة وأثره في الحضارة الأوروبية الحديثة ؟ وعن من اخذ الأوروبيون تلك الحضارة ومن حملها اليهم ؟ » فاستجاب صديقنا طريف الى رغبة محدثته رباب الملحة وراح

يحدثها ويوجز في الحديث فقال :

« لا يشك المؤرخ الأمين الذي يتجرد عن كل غاية اذا ما أراد البحث في هذا الموضوع او في سواه من الموضوعات يا رباب ان الفتح العربي أوجد الظروف الفكرية المؤاتية للبعث الاوروبي ، بتوفيره امكان احياء الثقافة القديمة ولا سيما الثقافة اليونانية .

واذا ما تدارسنا التاريخ يا رباب وضح لنا ان العصر الاول من عصور الاسلام ، ونعني به عصر الخلفاء الراشدين والامويين ، الذين حكموا في المدينة وفي دمشق ، كان عصر الفتوح .

وهنا ننتقل يا رباب الى المرحلة الثانية من تاريخ الاسلام تلك المرحلة التي بدأت بعد ان تطودت دعائم الملك ، وتوفرت اسبابه ، وهي مرحلة الخلافة العباسية ببغداد . التي قامت على انقاض الدولة الاموية . وقد بدأت هذه المرحلة يا رباب بحقبة من التمثيل ، امتدت من سنة ٧٥٠ الى ٩٠٠ للميلاد ، ويصح ان نسمي هذه الحقبة بحقبة الترجمة لكثرة ما نقل فيها من الكتب القديمة ولا سيما اليونانية منها الى اللغة العربية عن اليونانية مباشرة او عن السريانية فلم ينقض القرن التاسع حتى كانت كتب ارسطو وغاليلان وافلاطون وبطليموس واقليدس وارخميدس قد ترجمت الى العربية . وفي خلال سنة ٨١٣ - ٨٣٣ للميلاد يا رباب كانت اوروبا تجهل الكتابة والقراءة وتتخبط في خضم شاسع الاطراف من الحماسة والوحشية والجهالة والأمية . بينما كان الخليفة المأمون يؤسس في بغداد « بيت الحكم » . وكان هذا البيت يتألف من خزانة كتب ودار علم ومكتب

للترجمة ، وقد أصبح التراث اليوناني بواسطة بيت الحكمة يا رباب في متناول
الذين يتلون القرآن وينطقون بالضاد . وبعد رده من الزمن يسير كان
الخليفة الحكم الثاني في قرطبه يملك ستمائة الف مجلد ، بينما لم يستطيع ملك
فرنسا شارل لوساج ان يجمع ، بعد ذلك باربعائة سنة اكثر من تسعمائة
مجلد .

وقد بلغت مرحلة التمثل هذه يا رباب اوجها في نتاج الـكـنـدي الذي
ولد حوالي سنة ٨٥٠ م ، فقد تبنى هذا الفيلسوف نظرة ارسطو الى العالم
ووضع اكبر «موسوعة» عرفتها الدنيا قبل الموجز اللاهوتي الذي افه القديس
توما الاكوييني بعد ذلك بثلاثة قرون . وقد بقي نتاج الـكـنـدي اول فيلسوف
عرفته العرب من ناحية البحث الفلسفي منارة للثقافة العربية مدة غير يسيرة
من الزمن . وقد ترجم نتاج الفيلسوف العربي اي « الـكـنـدي » جيران
دوكريمون الى اللاتينية .

وهكذا نرى يا رباب ان الثقافة العربية قد تميزت بأول مظهر من
مظاهر البعث الاوروبي . وكانت الدعامة الاولى التي قام عليها البعث
الاوروبي . واما المظهر الذي تميزت به الثقافة العربية في البعث الاوروبي
فهو مظهر الاحاطة بأصول الثقافة القديمة والعمل على احياؤها ، وكانت اشبه
برباط وثيق يصل بين الثقافة القديمة والحضارة الحديثة .

وخلاصة القول يا رباب ان الفتح العربي قد جدد حيوية الغرب ،
وبعث حضارته باحياء العلوم اليونانية التي كانت اوروبا تجهلها ولولا نعمة
الفتح العربي والحضارة العربية لما تسنى لاوروبا ان تتعرف الى التراث

القديم ولا ان تظفر بشيء منه ولما كانت لها هذه الحضارة او على الاقل
لتأخرت حضارتها مدة من الزمن قد تكون هذه المدة قصيرة الابد وقد
تكون طويلة الابد .

ومع ذلك يا رباب يتجاهل المغرضون فضل الحضارة العربية على
الحضارة الاوروبية على الرغم من هذه الحقائق الثابتة ومن هذه الادلة
الساطة التي سقتها اليك في هذا الحديث القصير ولا ازمع ان حديثي هذا
تناول كل الادلة والبراهين والحقائق في فضل الحضارة العربية على الحضارة
الاوروبية . ويصدق قول الشاعر يا رباب على الذين يتجاهلون الحضارة
العربية واثرها في الحضارة الغربية وحتى في الحضارة الانسانية اقول يصدق
على هؤلاء الذين تأبى عليها نزعاتهم المحلية والعرقية وتغتهم الاقليمي الا
ان يتجاهلوا الحاجة في نفس يعقوب الدور الذي مثلته الحضارة العربية في
التاريخ قول الشاعر :

أعلمه الرماية كل يوم فلما اشتد ساعده رماني
وقد علمته نظم القوافي فلما قال قافية هجاني
ولما فرغ صديقنا طريف من حديثه طلبت اليه رباب المزيد من هذا
الحديث وقالت :

« هنالك يا طريف نظرية جديدة مغرضة تزعم ان الحضارة الاسلامية
لا اهمية لها الا باعتبارها حضارة ناقلة اقتصرت مهمتها على تمثيل الماضي
وايصاله الى الاجيال الآتية » وهنا اعتدل صديقنا طريف في مكانه وراح
يحدث جليسته رباب ويفند لها هذه النظرية المغرضة فقال :

« يجدر بي يا رباب قبل ان أردّ على هذا الزعم وأفند هذه النظرية
ان أشير باختصار الى ان الرومانيين انفسهم لم يقوموا بشيء غير هذا ولم
يفعلوا شيئاً سوى هذا . فان الحضارة اللاتينية ليست الا انتحالا او تقليداً ،
او محاكاة في احسن الحالات للحضارة اليونانية . وعلى الرغم من هذا ،
فقد اتاح المجال في اول مراحلها بين الاداب الكلاسيكية ، للغة اللاتينية
وللأدب اللاتيني الذي لم يكن الاّ ادب اقتفاء وتقليد .
وعلى العكس من هذا يا رباب . فان التعليم الرسمي لم يعط الحضارة
العربية الا مكاناً هزلياً جداً . مع انها لم تقتصر على احياء الحضارات
البائدة التي سبق لها ان ازهرت في العراق وفارس ومصر واليونان
وروما ، بل قامت خصوصاً بتطوير تراث القدماء واجتازتهم في عصرها
الذهبي الذي امتد من سنة ٩٠٠ الى سنة ١١٠٠ م .
ان الاكتشافات العلمية والتكنيكية المدهشة التي تمت في عهد
اليونان يا رباب . بين القرن الثالث والقرن الثاني قبل الميلاد لم تستطع
ان تغير اتجاه العالم لاسباب اقتصادية واجتماعية ، اذ ان اتساع نطاق
الرق قد حال دون تقدم التكنيك العلمي وقلب الحياة الاقتصادية ، لان
استغلال قطعان العبيد الذين يباعون باثمان بخسة جداً كان اكثر فائدة
وربحاً من استخدام الآلات . وهكذا اجهضت الثقافة اليونانية ، ولم
تستطع بعد ذلك انجاب حضارة جديدة .
وهنا انتقل بك يا رباب الى التفكير العربي التجريبي العملي فأقول :
« ان الامة العربية هذه هي الجرّابة الفاتحة التي اسست امبراطورية

تجارية . وازالت النظام الاقطاعي الزراعي . قد وثبت بالعلوم وثبة جبارة تتلاءم مع الاهداف العملية المثمرة التي عينت لها . فوجدت الاكتشافات العملية والتكنيكية التي تحققت في العهد اليوناني ، وكذلك عثرت على الظروف الملائمة لتجسدها وتضخمها في هذه الحضارة الجديدة التجارية . لقد كانت الجغرافية ولا سيما الجغرافية الفلكية يا رباب ، ضرورة حيوية لدى اولئك الرجال الذين دأبوا على اجتياز الصحاري وجوب البحار . غير عابئين بما يعترضهم من مصاعب ومشقات . وان مراصد سمرقند وبغداد ودمشق والقاهرة وقرطبة ، وهي المراصد الاولى في العالم كانت من صنع ايديهم . وكان اولئك العرب يا رباب اول من قاس درجة دائرة نصف النهار . وكذلك استطاعوا ان يحسبوا بدقة انحناء سمّت الشمس . ومبادرة نقطة التساوي بين الليل والنهار والفرق بين السنة الشمسية والسنة النجمية .

وها هو التاريخ يخبرنا يا رباب ان الغزاري قد اعاد بناء الاسطرلاب سنة ٧٧٠ م الذي اخترعه بطليموس ثم أدخلت عليه تحسينات عديدة في القرون التالية . ولما ترجم الخوارزمي بطليموس حوالي عام ٨٣٤ م ، وضع مفهوماً متماسكاً للأطوال والابعاد .

وكان علماء الجغرافية وعلماء الفلك العرب يا رباب ، اثناء وضعهم العملي لادلة الطرق وبيان مراحلها لتيسير ادارة الامبراطورية يحافظون على حيوية الفكرة القائلة بكروية الارض ، هذه الفكرة التي كان ينكرها رجال اللاهوت النصارى .

وقد ادى هذا التقدم النظري المرتبط كما يرجح بالتفوق التكنيكي، والذي لا يشير اليه اية اشارة لا لوفيفرديسنويت ولا لارونسيير في سقريهما عن تاريخ الملاحة ، الى تأمين السيادة البحرية المطلقة للمسلمين في جميع أنحاء البحر الابيض المتوسط ، ويقول ابن خلدون ان المسيحيين لم يبق في استطاعتهم أبداً ان ينزلوا الى هذا البحر حتى ولا لوحة خشبية واحدة. وفي غضون منتصف القرن العاشر ، تمكن المسلمون الذين تأسست احواسهم الاولى لبناء السفن في تونس في اواخر القرن السابع عشر ، ان يبلغوا شواطئ كانتون في الصين واكبر الظن انهم وصلوا كوريا واليابان ايضاً . وبعد خمسمائة سنة يا رباب اي عندما بلغ فاسكودو غاما ألماتاند على شاطئ افريقية الشرقي عام ١٤٩٨ ، كان الملاح الذي أرشده الى طريق الهند ملاحاً عربياً . وكذلك كان الملاح المسلم احمد بن ماجد اول من وضع كتاباً عن الملاحة في المحيط الهندي والبحر الاحمر والخليج الفارسي وبحر الصين ، وقد اتخذ البرتغاليون هذا الكتاب اساساً لدراساتهم البحرية في عهد هنري الملاح .

وان اول من فكر في شق ترعة السويس كان خليفة مسلماً (هو السلطان قانصوه الغوري وقد فكر في شق ترعة السويس سنة ١٥٠٤) وهو لم يعدل عن تنفيذ فكرته هذه الا لأسباب استراتيجية محضة . وارى لزماً علي يا رباب ان انتقل بك من هذا الحديث ، حديث الفكر التجريبي العملي عند العرب الى حديث آخر هو حديث المرحلة التي انتقل فيها العرب من التكتيك الى العلم . ولقد بلغ من تقدم علم الفلك

عند اسلافنا العرب القدماء ان الراهب جيربر الذي رفع الى كرسي الباباوية في سنة ٩٩٩ م باسم سلفستير الثاني ، ونظر اليه كمن تاجر مع الشيطان ، على اثر عودته الى المسيحية بعد ان قضى مدة في الجامعة الاسلامية بقرطبة .

وان ضرورات التجارة والحاسبة يا رباب، اضطرت العرب كما اضطرت الفينيقيون من قبلهم الى قلب علم الحساب رأساً على عقب . فان اكتشاف الارقام العربية ، واختراع الصفر الذي يرتكز عليه نظام التعداد العشري كله ، قد حققا الثورة الثانية في العلوم الرياضية ، منذ عهد الفينيقين الذين قاموا بالثورة الاولى . ولم تعرف اوروبة هذه الاكتشافات الا بواسطة العرب ، وقد عرفت بها بعدهم بمائتين وخمسين سنة ، في القرن الثاني عشر للميلاد .

ووفق الخوارزمي في علم الجبر حوالي ٨٣٥ - ٨٤٤ الى اعادة وضع المنهج الذي كان يعرفه علماء اليونان لحل معادلات من الدرجة الثانية وتمكن الشاعر الرياضي عمر الخيام الذي توفي سنة ١١٢٣ م ، حل معادلات من الدرجة الثالثة بواسطة المنهج الذي استخدمه ديكرت بعده بخمسة قرون ، فوضع بذلك أسس علم الهندسة التحليلية .

وكذلك لمع من علماء العرب يا رباب في علم الهندسة ثابت بن قرة الذي فاق اقليدس . واذا ما ذكرنا حساب مساحة المثلثات ذكرنا أبا الوفا الذي اكتشف الخط القاطع وليس كوبرنيك كما يزعم بعضهم ، واما الفارابي فقد اكتشف علم أنساب العدد « اللوغاريتمات » بعد

دراسته الفواصل الموسيقية . كما درس ابن سينا المقادير او الكميات
غير المتناهية .

واما في علم الكيمياء يا رباب فلقد حمل العرب الى الغرب نصيباً
منه كما يستشم من هذه الكلمات :

«Alcali» القلي او ملح القلي ، «Alcool» الكحول ، «Alambic»

الانبيق ، «Elixir» الاكسير (آلة تقطير وتكرير) وغيرها :

أ - مناهج : التقطير ، والتصعيد ، والتجمد .

ب - منتجات جديدة : القلي او معدن البوتاسيوم ، والنشادر

(الامونيك) ، والنيتريك او حمض الازوتيك ، والماء المكلي ، والسليمانى

او المصعد الاكال ، والورق الذي صنعه العرب من القطن منذ عهد هرون

الرشيد المتوفى ٨٠٩ م . اما في الطب يا رباب فلم نذكر الا اسماً واحداً هو

اسم الرازي «Rhazes» الذي عاش بين سنة ٨٦٥ وسنة ٩٢٥ م وكان من

اكبر الاطباء في جميع العصور . فقد وحد نابغة العرب في علم الطب اي

الرازي بين الفكر الملاحظ والفكر التجريبي ، فوضع تصنيفاً منهجياً

وقياسياً للأمراض . وقد اعيد في انكلترة طبع الموسوعة الطبية التي أنشأها

وترجمها فراغوت الى اللاتينية بأمر شارل الاول ، اربعين مرة منذ سنة

١٤٩٨ الى سنة ١٨٦٦ وفي عصر البعث الغربي اعيد طبعها في فيينا «Vienna»

سنة ١٥٢٠ وفي فرنكفورت سنة ١٥٨٨ ، اي انها ظلت طوال الف سنة ،

حتى ظهور كلود برنارد ، توجه الابحاث الطبية لدى جميع الشعوب .

ويعود الفضل الاول يا رباب الى الاطباء العرب الذين قدموا من

اسبانيا في الشهرة التي أحرزتها كلية موتبليه لاول عهدها . ويكفي ان
نورد شهادة سان برنار الذي شهد ببراعة اطباء موتبليه الذين تتلمذوا على
يد الاطباء العرب منذ سنة ١١٥٣ م . وان هذه الكلية التي ظلت حرية
الفكر زمناً طويلاً من مزاياها الأساسية ، لتفخر بان من طلابها اديننا رابله
ويبدو لي يا رباب ان رسوخ الفتح العربي وطريقتهم التجريبية المتينة
هما اللذان ميّزا الفلسفة الاسلامية بأسمى ميّزات الاعجاب وخصائصه .
وهكذا نرى يا رباب ان العرب الرجل الذين بهروا العالم بفتوحاتهم الموقفة
اسسوا امبراطورية تجارية وازالوا النظام الاقطاعي الزراعي في كل مكان
دخلوه وألغوا الرقّة ووثبوا بالفلسفة وتاريخ الفكر وثبة جبارة نظراً لاهداف
العلمية التي وضعوها نصب اعينهم وكانت ذات فائدة ملموسة . وكانت
قد توفرت لدى العرب يا رباب الاكتشافات العلمية والتكنيكية التي
تحققت في العهد اليوناني ، فاستخدموها في هذه الحضارة التجارية الجديدة
وكانت الظروف المؤاتية لبعثها من جديد وازدهارها مرة اخرى متوفرة
عند العرب ...

وهنا تساءلت رباب قائلة :

« هل كان للعرب يا طريف فلسفة عقلية ؛ وهل تميزوا بالفكر الثاقب
النقاد ؟ » وراح صديقنا طريف يحدث رباب ويحلّ لها هذه المسألة موجزاً
القول فيها لضيق الوقت وطول الحديث فقال :

« لا ريب يا رباب ان العرب القدماء كانوا اهل فلسفة عقلية واصحاب
فكر ثاقب نقاد . وان الروح التي تميز هذا العلم وهذه الفلسفة يا رباب

المرتبطين ارتباطاً وثيقاً بمشا كل الحياة اليومية في عهد كانت المسيحية « اي
 اوروبة المسيحية - الغرب » راقدة في ثبات عميق وتأثرة في شعاب التقشف
 الصوفي وفلسفة القرون الوسطى ، ان لم نقل في غياهب الظلمات وفي خضم
 من الحماقة والجهل المطبق ، ان هذه الروح يا رباب لتذكرنا بالمفكرين
 اليونان القريبين باتجاهاتهم المادية والعقلية من الاتجاهات الماركسية . وانه
 لمن الانصاف يا رباب ان نقر هذه الحقيقة رغم تجاهل المغرضين وهي ان
 ابن سينا الطيب والفيلسوف (٩٥٠ - ١٠٣٧ م) وابن رشد « Averroes »
 (١١٢٦ - ١١٩٨ م) فيلسوف قرطبة العظيم والفقيه المجدد والعالم الطبيعي
 الشهير ، قد اعلنا قبل ديكارت بخمسة قرون ، حق اخضاع كل شيء ،
 ما عدا العقائد الدينية الصادرة عن الايمان ، الى حكم العقل . ولم يكونا
 كما شاع طوال قرون وكما يقول « النوردي سيجر دو برابان » عنهما (رسولي
 الاحاد) بل كانا رائدي الفكر الناقد والمذهب العقلي الحديث .
 وقد ادرك يا رباب ذلك كل الادراك ، الشاعر دانتي الذي انطبع
 تفكيره بطابع اسلامي ، والذي اثني على ابن رشد ثناء عظيماً في النشيد
 الرابع من كتاب الجحيم في الكوميديا الالهية . كما ادرك ذلك روجربا كون
 اكبر مفكري الغرب في القرن الثالث عشر واكثرهم تحملاً فقال :
 « ان الفلسفة مستمدة من العربية ، وليس من لاتيني واحد يستطيع
 ان يفهم حكمة الكتاب المقدس والفلسفة كما ينبغي لها ، ان لم يكن يجيد
 اللغات التي ترجما عنها . »
 ولما تبددت سحب ظلام القرون الوسطى يا رباب ، لم يقف الشرق

العربي عند كونه معلم اوروبة والآخذ بيدها الى سبل النور والعلم بانجسابه
 النماذج العديدة من اولئك الرجال امثال البيروني (٩٧٣ - ١٠٦٨ م)
 الطبيب والفلكي والرياضي والجغرافي والعالم الطبيعي ، وغيره من الرجال
 الذين احاطوا بجميع المعارف البشرية ولا يظهر ان الاغنياء الا عندما تبلغ
 الحضارات ذروتها القصوى ، ولقد انجب الغرب في نهضته الحديثة يا رباب
 نماذج من امثال اولئك الرجال . وكانت الاكاديميات الاسلامية بمكتباتها
 وكتباتها الاربع ، ومنهجها الدراسية ، وانظمتها السلوكية ، ودرجاتها
 الجامعية ، وطلابها الأجانب ، التي اعطت اوروبا نماذج عن انظمة التعليم ،
 قد انتشرت في اول الامر في اوروبة المسلمة كسالدن بصقلية وقرطبة باسبانية
 ثم اوروبة المسيحية التي تبعت وقلدت تلك النماذج ، بجامعاتها الكبيرة
 في بولونية وباريس ومونتبلية واوكسفورد في القرن الثالث عشر .
 وهكذا نرى يا رباب ان الديانة الاسلامية واللغة العربية قد نشأتا
 وحدهما في شبه الجزيرة العربية بينما نرى أن الفنون والعلوم والفلسفة ولدت
 في احضان الامبراطورية العربية لما انتقل العرب من خيامهم المنسوجة من
 شعر الماعز ووبر الجمال الى القصور المبنية من الرخام ، ومن الغزوات الدامية
 في عرض الصحراء الى السيادة الامبراطورية التي صارت للخلفاء .
 وحينئذ يا رباب استيقظ العالم من غفلته ونهض من كبوته وتحول ركوده
 الى حيوية ونشاط . فانبعثت الافكار القديمة والانظمة البائدة واستعادت
 شبابها . وعادت الى الاقطار الحيوية والنشاط والنمو كما كان شأن العراق
 ومصر وفارس ويونان كما عادت البشرية الى مواصلة سيرها ومتابعة رقيها .

ولم يكن يا رباب في وسع هذه الحضارة وفلسفتها الايحاء بالهرب من معترك الحياة او الانفصال عنها ولم يبشر بمثل هذه الحضارة العليا في نشأتها الاولى عبيد أرقاء بل بشر بها فاتحون طامحون . فاذن يا رباب يمكننا ان نقول ان هذه الحضارة وفلسفتها ليست في بادئ امرها ميتافيزيقيا تمخض بها عالم كان يجد نفسه في مأزق لا مخرج منه شأن اوروپة المسيحية . لان طريق المستقبل والسيادة كانت تنشق وتتسع في سرعة غريبة امام الفتح العربي الاسلامي وارى ان انتقل بك الآن يا رباب الى الحديث عن النظام الاقتصادي والاجتماعي عند العرب فاقول :

« يبدو لي ان الشرائع التي جاء بها وحملها الاسلام الى البلدان التي افتتحها العرب ، هي من مميزات الحضارة التجارية . على عكس النظام الاقطاعي . والادلة على ذلك يا رباب انظمة الضرائب والانظمة الملكية والانظمة المدنية .

ولنعد الآن لنقف عند انظمة الضرائب وقفه يسيرة لنرى ان الضرائب كانت خلال القرون الوسطى في الغرب المسيحي ، تفرض على الارض وحدها . ولكن بظهور الاسلام ظهر نظام جديد للضرائب وهو نظام الضرائب التي تفرض على الملكية الشخصية . واليك قول الماوردي في هذا الموضوع : « ليس على الارزاق من ضريبة غير الزكاة . » واليك ايضاً تعريف الزكاة كما ورد في القرآن الكريم :

« خذ من اموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » سورة التوبة آية ١٠٣ والغرض المقصود من هذه الضريبة واضح كل الوضوح ، فان الاموال التي

تجمع من الزكاة يجب اعطاؤها ، كما جاء في القرآن :

« للفقراء ، والمساكين ، والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم ، وفي الرقاب ،
والغارمين ، وفي سبيل الله ، وابن السبيل » سورة التوبة آية ٦٠ .

ونرى ان الغرب يا رباب محاكاة منه للعرب لجأ بعد الحروب الصليبية
الى وضع المكوس على الاشخاص والأدخال فجرت فرنسا على ذلك
في سنة ١١٤٦ وسنة ١١٦٥ م وتبعتها انكلترا في سنة ١١٦٦ م .

وما دمتنا قد القينا على نظام الضرائب نظرة عابرة فلننتقل يا رباب الى
الحديث عن نظام الملكية ولو عدنا ودققنا النظر في مجموعة الاحاديث النبوية
التي ضبطت روايتها وصح اسنادها لرسمت لنا قاعدة ذهبية ونخرجنا منها
بما يلي :

لا يحق لاحد ان يملك ارضاً الا اذا استغلها بعمله وزرعها بنفسه .
(راجع « النظم الاسلامية » حسن ابراهيم حسن وعلي ابراهيم حسن ص
٢٧٠ - ٢٧٤ - المغرب .)

ورد في القرآن الكريم الآية القائلة :

« وان ليس للانسان الا ما سعى »

ويروي ابو يوسف بن يعقوب صاحب « كتاب الخراج » هذا
الحديث الشريف :

« من احيا ارضاً مواتاً فهي له » .

ويعترف يا رباب شارل جيد في كتابه « دروس الاقتصاد السياسي »

الجزء الثاني صفحة ٢٣٦ بقوله :

« ان المشرع الاسلامي لا يقر ملكية المرء الفردية الا على الاراضي التي كانت ميداناً لعمل فعال من قبله » .

وقد احترم الاسلام هذه الفكرة التي تقرر ان العمل وحده هو الذي ينشئ الملكية ، حتى ان الفتح الذي ترافقه مصادرة الملكية لم يقبل في العرف الاسلامي إلا في احوال قليلة كضرب من الاخذ بالثأر ، وذلك تقدم كبير . بالنسبة للمجتمع القديم ولا يقل عن ذلك دلالة على التقدم ، الغاء المبدأ الروماني الذي يقر « حق التصرف واساءة التصرف » . ففي الشرع الاسلامي ، كما يردد البخاري غير مرة . كل تخريب للارزاق لا طائل منه هو خطيئة .

وواضح ان هذا المفهوم للملكية انما يصدر عن احترام للعمل . فبينما كانت اوروبة المسيحية تضع في الدرجة الاولى التأمل او السلاح ، وتخص الاقنان وحدهم بالعمل ، كان الشرع الاسلامي يحض على كل نشاط عملي ويولي العمل والزراعة والتجارة احتراماً كبيراً ، ويطلب من كل انسان ان يعيش من عمل يديه ويزدري اولئك الذين يعيشون من عمل الآخرين . ولا يغرب عن البال يا رباب ان نظام الطوائف الحرفي ، الذي لم تعرفه اوروبة الا بعد عدة عصور ، قد ظهر خلال القرن التاسع في فرق القرامطة . وان نظام البلديات الذي لم يظهر في اوروبة الا بعد الحروب الصليبية ، قد وجد منذ امد بعيد في العالم الاسلامي ، مع مؤسساته الخاصة . وكان المحتسب هو الذي يدير النشاط الاقتصادي ويؤمن النظام .

وقد عاد النظام السياسي الذي كان سائداً في مدن اليونان التجارية القديمة فظهر في الغرب ثانية بفضل العرب وامن بواسطة بيزنطية اتصال الحضارات بعضها ببعض .

وكان الاثر الذي تركه العرب في اسبانيا يا رباب اعظم منه في اي بلد آخر ، وقد تألف بفضل هذا الاثر اول برلمان في اوروبة التي لم تعرف نظام البرلمان حتى ذلك الحين . وقد وضعت نماذج للحياة البلدية في مختلف المدن الاسبانية . وكان لكل مدينة من هذه المدن موازنتها المستقلة ومحافظوها المنتخبون وكانت في تلك الفترة من الزمن الزراعة العلمية والصناعات الواسعة كصناعة النسيج والمعادن والجلد آخذة في النمو والارتقاء في اوروبة وقد صحب نشوء الزراعة والصناعات نمو ارقى ملاحظة عرفت في تلك الايام في اوروبة . تلك الملاحظة التي يعود الفضل الاول لها في اكتشاف عظيم ذلك الاكتشاف الذي تمخض عنه ظهور العالم الجديد اي القارة الاميركية !! ولما انتهى صديقنا طريف من حديثه طلبت اليه رباب ان يستمرسل في الحديث وكان قد انقضى الهزيع الثاني من الليل . ولكن صديقنا طريفاً اعتذر عن متابعة الحديث واستأذن جليسته رباب في العودة الى مسكنه ليأخذ لنفسه قسطاً من الهدوء والراحة والسكينة .

الفصل الثاني

المؤرخ الاجتماعي ابن خلدون

وفي الامسية التالية اختلف صديقنا طريف الى منزل زميلته رباب

و بعد حديث في المجاملة كان يتخلله بعض النكات والطرف والملح ولا يدري
صديقنا طريف اطلال هذا الحديث ام قصر . ولما فرغ صديقنا طريف وزميلته
رباب من الحديث وحان وقت الدرس والمطالعة تناولت رباب عن المنضدة
مقدمة المؤرخ الاجتماعي الشهير وراحت تقرأ لصديقنا طريف ما شاء
القراءة من فصولها . ولما تعبت رباب من القراءة القت الكتاب في مكانه
وقالت بلهجة يشوبها الملل والضجر :

« لم اظفر بشيء مما قرأته من مقدمة ابن خلدون يا طريف ولم تستوعب
ذا كرتي من فصولها شيئاً . ولا احب ان اقرأ ما لا افهم يا طريف ولا
ادري لماذا لم اظفر من هذه المقدمة بشيء ولعل عدم استيعابي
ابسط ما جاء في هذه المقدمة يعود الى صعوبة موضوعها وتعقيد ابحاثها
وجفاف اسلوب ابن خلدون . ولعل السبب الذي جعلني لم اظفر من هذه
المقدمة لا بقليل ولا بكثير يعود الى قصور عندي في الفهم والادراك والى
بلادة في الذهن وضعف في الذاكرة . فهل لك يا طريف ان تحدثنا عن
ابن خلدون ومقامه في التاريخ ولو بأيجاز حتى يتسنى لي ان افهم ما قرأت
وان اقف على حقيقة أمر ابن خلدون الذي يملأ ذكره افواه الناشئة في
الشرق والغرب »

فابتسم صديقنا طريف وراح يحاور زميلته رباب والغبطة تملأ صدره
لما لمس عند رباب من حب الاستطلاع والوقوف على حقائق الامور
فاسترسل يحدثها وقال :

« كان حديثي اليك يا رباب بالامس القريب عن الحضارة العربية

والدور الذي مثلته في التاريخ واثرة هذه الحضارة في الحضارة الأوروبية الحديثة وارجو ان تكوني قد ظفرت بشيء من هذا الحديث . ولا بأس أحدثك اليوم عن الفيلسوف العربي واضع حجر الزاوية في علم الاجتماع ابن خلدون . ويطول بي الوقت اذا ما حدثتك عن ابن خلدون واستوفيت هذا الحديث ووفيت ابن خلدون حقه . وانا اقصر باعاً يا رباب من ان اوفي ابن خلدون حقه في مثل هذا الحديث القصير وان احيط في هذه الجلسة بكل ما ثره وهو ولا ريب يعتبر الأسس في الحضارة العربية بل ومن الحق ان اقول ان هذا العلامة يعتبر الأسس في الحضارة العالمية . ولا بأس يا رباب ان أسوق اليك في هذه الجلسة القصيرة بعض ما يحضرنى عن ابن خلدون فيلسوف العرب غير مدافع و بلا منازع ولا شك يا رباب ان الافكار التي ولدت في المدن الاسبانية كانت قد تعدت نطاق القرون الوسطى . وكانت اسبق الى الظهور من البعث الاوربي والقرن الثامن عشر في فرنسا . وكان ابرز الوجوه يا رباب واكثرها تقدماً من هذه الناحية وجه العلامة العربي مؤسس علم الاجتماع فيلسوفنا ابن خلدون (١٣٣٢-١٤٠٦) وكان ابن خلدون في وقت واحد كما يشهد التاريخ وهو خير الشاهدين عالماً وفناناً ومحارباً وفقهياً وفيلسوفاً ، وليس من المغالاة في شيء يا رباب اذا ما قلت وجزمت في القول ان ابن خلدون كان يشبه باتساع معارفه وشمول اطلاعه وقوة عبقريته وهو ابن الرابع عشر جبارة عصر البعث الحديث . وقد ولد فيلسوفنا العظيم يا رباب في تونس عام ١٣٣٢ وتوفي ١٤٠٦ م وقد تلقى علومه في تونس ايضاً وهي مسقط رأسه . وقد ارغم ابن خلدون

الطاغية الفاتح العنيف تيمور لنك نفسه على ان يقف امامه موقف الاحترام
والاعجاب والاحلال وان يتركه وشأنه ليغادر دمشق مع اصحابه في
غضون سنة ١٤٠٠ م .

وعندما يقرأ الغربي « مقدمة ابن خلدون » التي طرحها ارضاً يا
رباب دونما اكتراث وتقدير يرى فيه وهو ابن القرن الرابع عشر كما
اسلفنا سابقاً لما كيا فيل وديكارت ومونتسكيو بثلاثة قرون .

تعالى معي يا رباب وانظري الى ابن خلدون كيف يتساءل عندما وضع
المعضلة السياسية بشكل عيني وعلمي :

- كيف يتوطد السلطان ؟

- ما هو منشأ الدولة ؟

- كيف تتأسس دولة ما !

وفي هذا التساؤل ارى أن ابن خلدون قد بلغ بتفكيره درجة لم يعل عليها
في خلال القرن السادس عشر ما كيا فيل في كتابه « الامير » .

وارى يا رباب ان ابن خلدون حينما وضع القواعد الضرورية للتاريخ
العلمي ولعلم الاجتماع ، قد ضاهى مونتسكيو وكان اسبق منه الى هذا العلم
الذي أشار اليه مونتسكيو في كتابه « روح القوانين » . ويكفي ابن
خلدون فخراً انه كان السابق الى تعريف النقد التاريخي في حين لم تكن
اوروبه تعرف فيه الا رواة الاخبار ، فقال :

« ان فن التاريخ من الفنون التي تتداوله الامم والاجيال ، وتشتد
الركائب والرحال ، وتسمو الى معرفته السوقه والاعغال ، وتتنافس فيه

الملوك والاقبال .

اذ هو في ظاهره : لا يزيد عن أخبار الايام والدول ، والسوابق من القرون الاول ، تنمو فيها الاقوال ، وتضرب فيها الامثال ، وتطرف بها الاندية اذا غصها الاحتفال ، وتؤدي لنا شأن الخليفة كيف تقلبت بها الاحوال ، واتسع للدول فيها النطاق والمجال ، وعمرروا الارض حتى نادى بهم الارتحال ، وحن منهم الزوال .

وفي باطنه : نظر وتحقيق ، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق ، وعلم بكيفيات الوقائع واسبابها عميق ، فهو لذلك اصيل في الحكمة وعريق ، وجدير بان يعد في علومها وخليق ... » .

ويعتقد ابن خلدون ان اكثر المؤرخين الذين سبقوه ، ويرى ان فن التاريخ صار على ايديهم واهياً ومختلطاً ومنتحلاً ، ثم يبين ضرورة تمحيص الاخبار وتعليل الوقائع ، معدداً الاغلاط والالوهام التي يقع فيها المؤرخون والاسباب التي تحصلهم على ذلك ، مبيناً الطرق التي يجب اتباعها في تقصي الحقائق وتمييز الصدق من الكذب واهمها معرفة طبائع العمران اي سننه التي يجري عليها « فالقانون في تمييز الحق من الباطل في الاخبار بالامكان والاستحالة ، ان ننظر في الاجتماع البشري هو العمران ، وتميز ما يلحقه من الاحوال لذاته وبمقتضى طبعه ، وما يكون عارضاً لا يعتد به وما لا يمكن ان يعرض له . واذا فعلنا ذلك ، كان ذلك لنا قانوناً في تمييز الحق من الباطل في الاخبار ، والصدق من الكذب ، بوجه برهاني لا مدخل للشك فيه » (ص ٣٧ - ٣٨) ويقول في مكان آخر :

« وليس مرادنا الامكان العقلي المطلق ، فان نطاقه اوسع شيء فلا يفرض حداً بين الوقعات ، وانما مرادنا الامكان بحسب المادة للشيء !
(ص ١٨٢ - المعرب)

والحق ان لهجة المقدمة لتستدعي الى الذهن بقوة لا تقاوم لهجة :
« خطاب في المنهج » لديكارت . وهكذا نجد يا رباب انه بينما كان التاريخ في اوروبة حتى منتصف القرن الثامن عشر ، روائياً ووصفياً محضاً ، وضع ابن خلدون في القرن الرابع عشر مفهوماً للتاريخ الذي يشرح الامور ويعلل اسبابها :

« أنشأت في التاريخ كتاباً ... سلكت في ترتيبه وتبويبه مسلكاً غريباً واخترعته من بين المناحي مذهباً عجيباً ، وطريقاً مبتدعاً واسلوباً . استوعب اخبار الخليفة استيعاباً ، وذلل الحكم النافرة صعاباً ، واعطى لحوادث الدول اسباباً .. » . « لم اترك شيئاً في اولى الاجيال والدول ، وتعاصر الامم الاول واسباب التصرف والحول ، من القرون الخالية والملل وما يعرض في العمران من دولة وملة ، ومدينة وحلة ، وعزة وذلة ، وكثرة وقلة ، وعلم وصناعة ، وكسب واضاعة ، واحوال متقلبة مشاعة ، وبدو وحضر ، وواقع منتضر ، الا استوعبت جملة ، واوضحت براهينه وعمله .. »
وليس من المبالغة في شيء يا رباب اذا ما انصفنا ابن خلدون وقلنا ان ابن خلدون لم يضع فلسفة للتاريخ فحسب بل دشن التاريخ العلمي واسس علم الاجتماع .

ويبدو ان الملاحظة عند ابن خلدون كانت تطفئ على الاحكام

المجردة . وقد سجل ابن خلدون بدقة لم يسبقه اليها احد تأثير البيئة الطبيعية والظواهر الاقتصادية في حياة الامم . وعلاوة على هذا نراه قد درس تركيب المجتمعات المؤسسة على التعاون الاقتصادي وتقسيم العمل . وصنف الشعوب والمجتمعات بالنسبة لطريقة انتاجها الاقتصادي . وانه ليضع هذا التعريف الواضح الذي هو احد مبادئ المادية التاريخية :

« ان اختلاف الاجيال في احوالهم ، انما هو باختلاف نحلتهم من المعاش . راجع المقدمة (ص ١٢٠) ... » فان اجتماعهم انما هو للتعاون على تحصيله راجع المقدمة (ص ١٢) .. » .

الفصل الثالث

انهيار الحضارة العربية

وماكاد صديقنا طريف يفرغ من حديثه عن المؤرخ الاجتماعي ابن خلدون حتى قالت له رباب :

« الآن شعرت يا طريف بقيمة العرب التاريخية وادركت الاثر الذي أحدثته الحضارة العربية في غيرها من حضارات الامم ووقفت على الدور الذي مثلته هذه الحضارة في التاريخ . ولكن معضلة اشكل علي فهمها وهذه المعضلة التي ادت الى انهيار الحضارة العربية وتأخر العرب في ركب الحضارة الحديثة فهل لك يا طريف ان تعلق هذه الاسباب وان تحل لنا هذه المشكلة الخطيرة التي نزلت بصرح الحضارة العربية الى الحضيض » وهنا ابتسم صديقنا طريف ابتسامة لا تتم عن الرضا وود لو ينتهي

الحديث مع رباب وان تقف رباب عند هذا الحد لان حديثها مع صديقنا طريف كان قد طال . وكان صديقنا طريف قد شعر بالتعب والنعاس . ولكن صديقنا طريف ألقى نفسه في مأزق حرج لا يستطيع الخلاص منه فراح يحدث رباب وهو يحوقل في نفسه (لا حول ولا قوة الا بالله) فقال :

« لقد بلغت الحضارة العربية المشرقة يا رباب عنفوان فجرها وذروة سؤدها في القرن الحادي عشر للميلاد . والظاهرة الغربية يا رباب ان انهيار الحضارة العربية بدأ في الوقت عينه . وتعود اسباب تداعي الحضارة العربية للانهيار الى الفوضى والبلبلة التي سادت الامبراطورية العربية في ذلك الحين والاضطراب الذي نتج عن تجزئة السلطة بين الخلفاء . وقد حطمت هذه العوامل محور العلاقات الاقتصادية في الامبراطورية العربية . واخذ نطاق هذا المحور الاقتصادي ينكمش شيئاً فشيئاً وينطوي على ذاته ورافقت هذا الانكماش الاقتصادي الحواجز التي قامت حوله في كل اقليم من اقاليم هذه الامبراطورية الشاسعة الاطراف وبهذا اصبح انتاج البضائع المحلية لا فائدة ترجى منه . وذلك لان الاسواق المحلية لا تستوعب هذا الانتاج ولا قدرة لها على استهلاكه . ولهذا رأينا يا رباب المقاطعات المختلفة التي كان يحكمها العرب انكمشت على نفسها وعادت تعمل ضمن دائرة نطاق الصناعات المحلية الضيقة والاقتصاد الزراعي والنظام القطاعي . وما كادت يا رباب هذه الامبراطورية المترامية الاطراف التي كان ينقصها التماسك الداخلي ، تعود القهري الى النظم القطاعية واصبحت الامبراطورية

العربية على اثر هذه النكسة لقمة سائغة لغزوات الصليبيين من الغرب
وفريسة سهلة المنال لغزوات تيمورلنك والمغول من الشرق . فاسدل بذلك
الستار على اروع فصل من تاريخ الحضارة العربية بل من تاريخ الحضارة
البشرية ايضاً ومما زاد الطين بلة يا رباب رزوح الامة العربية تحت نير
الاستعمار العثماني والاستعمار الغربي مدة خمسة قرون ونصف القرن هذا
الاستعمار الذي اضعف الثقافة القومية وموارد البلاد الاقتصادية . وقطع
الانجليز والفرنسيون الوطن العربي الكبير ارباً ارباً ومزقوه اشلاء فخلقوا
من الوطن الواحد اوطاناً وما زال الرجعيون من العرب يتمسكون بهذه
الكيانات السياسية الهزيلة التي اولدتها معاهدة سايس بيكو .

وراح المستعمر الغربي يسمي العرب سوء العذاب ويشل نشاطهم القومي
حتى اصبح البعض منا يعتقد ان العرب لا يصلحون للحياة وانهم قوم وصلوا
من الخمول وعدم الشعور بالمستقبل الى حد لم يصل اليه سواهم . ولعل
مرد ذلك يا رباب ان زعماء العرب اكتفوا بمعالجة مشاكلهم بأساليب
الارتجال والاعتباط وانهم وصلوا من السذاجة الى ما لم يصل اليه سواهم
حتى استطاعت بريطانيا الدنيا ان تخذلهم في الحرب العالمية الاولى وقد
وقفوا الى جانبها على ان تمنح بريطانيا الغير عظمى البلاد العربية استقلالها
اذا ما تم النصر لها . لكن بريطانيا المراوغة لم تنقيد بالعهود والوعود التي
قطعتها على نفسها للسلطان حسين فقاسمت فرنسا الوطن العربي وفرضت
بريطانيا انتدابها على فلسطين وشرقي الاردن والعراق وفرضت فرنسا انتدابها
على سوريا ولبنان . والانكى من ذلك يا رباب ان بريطانيا وفرنسا قد

تقتضتا نصوص الانتداب وحكمنا بلادنا بوسائل استعمارية . وعلينا يا رباب
اذا اردنا ان نسترجع مجدنا ونساهم في بعث الحضارة الانسانية ان نكون
سواسية كاسنان المشط امام القانون وفي الحقوق والواجبات وان نضرب
صفحة عن اساليب الارتجال والتبجح وان نطبق العلم والمنطق في مرافق
حياتنا هذا العلم الذي طبقه الدكتور وايزمن في جميع مراحل الصهيونية وقد
طبقه ايضاً في الجامعة العبرية في القدس . وعلينا ان نعلم الصناعة في بلادنا
وان نقوي اقتصادياتنا . ونحن على يقين يا رباب من ان ازدهار الثقافة
والحضارة العربية منذ القرن الثامن الى القرن الخامس عشر للميلاد ، ذلك
الازدهار العظيم ليكذب تكذيباً قاطعاً اصحاب « الأحكام العرقية »
ونظرياتهم في انحطاط بعض العروق ولا سيما العرق السامي الذي تحدثت
منه الامة العربية .

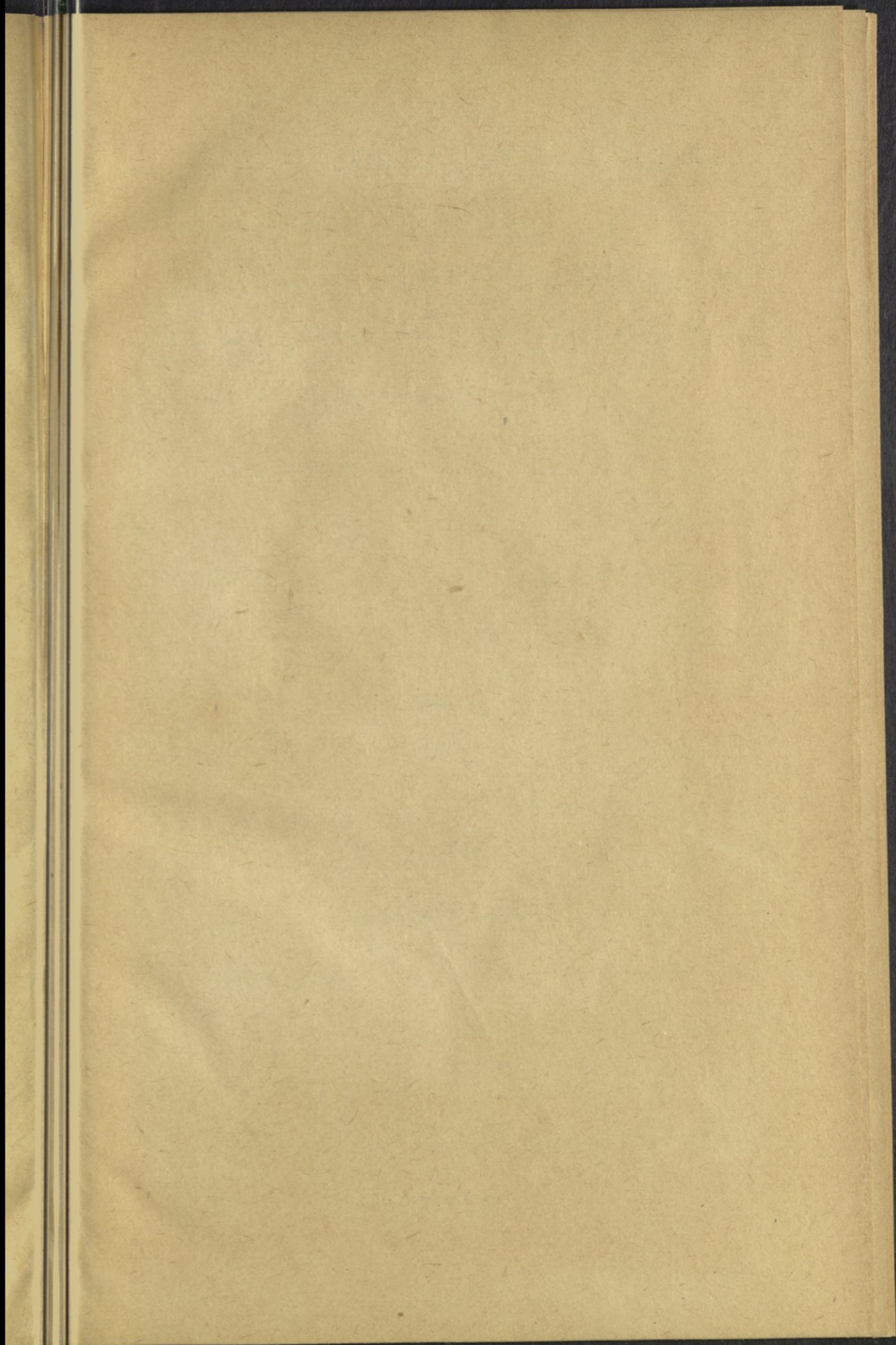
ان الماضي المجيد الذي كان للحضارة العربية ليعبرهن بصورة لا تقبل
الجدل على ان العرب يستطيعون ان يساهموا مساهمة كبرى في ولادة
حضارة اصيلة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بتقاليد الثقافة العربية القديمة وتراثها
العريق ، كما ترتبط بفتوحات الحضارة الغربية المعاصرة .

وعلى الشبيبة العربية يا رباب ان تدرك خطر المسؤولية الملقاة على
عواتقها وعليها ان تخلق لامتها حضارة تتلاءم وروح العصر الحديث وان لا
تقف امام التيار فتعود التقهقرى . وعلى هذه الشبيبة يا رباب الا تزج نفسها
في المجزرة العالمية القادمة التي لا ناقة لنا فيها ولا جمل . وعلينا ألا ننحاز الى احد

المعسكرين المتنازعين وان نلزم الحياد المسلح . لا لا يا رباب لن نسير
الى جانب بريطانيا في الحرب العالمية الثالثة ولن نؤمن بعد اليوم بطيبة
الغرب وسلامة طويته كما كان شأن كهولنا . وكيف نحسن الظن بالغرب
وقد وضعت بريطانيا حجر الزاوية للوطن القومي لليهود في فلسطين .
وكيف نحسن الظن بهذه الدولة وقد استساغت تشريد زهاء مليون نسمة
من عرب فلسطين من ديارهم . كيف نحسن الظن ببريطانيا يا رباب وقد
وقفت موقفاً عدائياً من قضية فلسطين في اروقة هيئة الامم المتحدة . كيف
نحسن الظن ببريطانيا التي لا تزال تسير في سياستها الخارجية باساليب القرن
التاسع عشر الاستعمارية . ان بريطانيا يا رباب دولة نفعية تضع مصلحتها
فوق مصلحة كل الشعوب ولو كان في مصلحتها اجحاف بمصالح الشعوب
الاخرى وهي لا تقيم وزناً للمبادئ الخلقية والعهود التي تقطعها على نفسها .
ولن نؤمن ايضاً يا رباب بعدالة الولايات المتحدة الاميركية التي اخذت بيد
اسرائيل وعاونتها مادياً ومعنوياً ولا بد لي ان اصارح اميركا واقول لاسمتها
ان بلادهم بلاد الحرية الزائفة والعدالة المختلقة هذه العدالة التي تقبل بتشريد
مليون انسان من عرب فلسطين كانوا آمنين مطمئنين في ديارهم ولا بد
لي يا رباب ان اذكرك بدولة عربية اخرى لا تزال تتشبث بالعقلية
الاستعمارية القديمة وتطبق اساليب الاستعمار العاشمة في المغرب العربي وهي
فرنسا التي تقف بالمرصاد للنزعات التحررية في المغرب العربي وتقمعها

بالعنف والقوة ولكن ارادة الشعوب يا رباب لا تقاوم فان كان الغرب
يملك الطاقة الذرية فنحن نملك طاقة الحياة !!!..
وان ارادة الشعوب العربية وقوة عزيمة شبيبته كفيلتان بطرد فرنسا
من المغرب العربي وباخراج بريطانيا من ترعة السويس وشرقي الاردن
والعراق وسائر الامارات العربية شاءت ام أبث !!!

(انتهى)



فهرس

•

صفحة

٤

الاهداء

٥

تمهيد

احاديث سياسية

٩

الامة العربية والدول الاستعمارية

١٩

ذكرى منتصف أيار

٢١

مشروع التوطين مؤامرة استعمارية ضد العرب

احاديث فلسفية

٢٤

هل حاول الفارابي التوفيق بين الحكمة والشرعية

٢٨

بين الفلسفة الميتافيزيقية والفلسفة المادية

٣١

الاشتراكية في الاسلام

احاديث اجتماعية

٣٣

اثر السينما في الناشئة

ايتها الفتاة هيا الى العلم والعمل

نصيحة لأمهات المستقبل

احاديث ادبية

جهل للتاريخ

ايهما اخلص للآخر : الرجل ام المرأة ؟

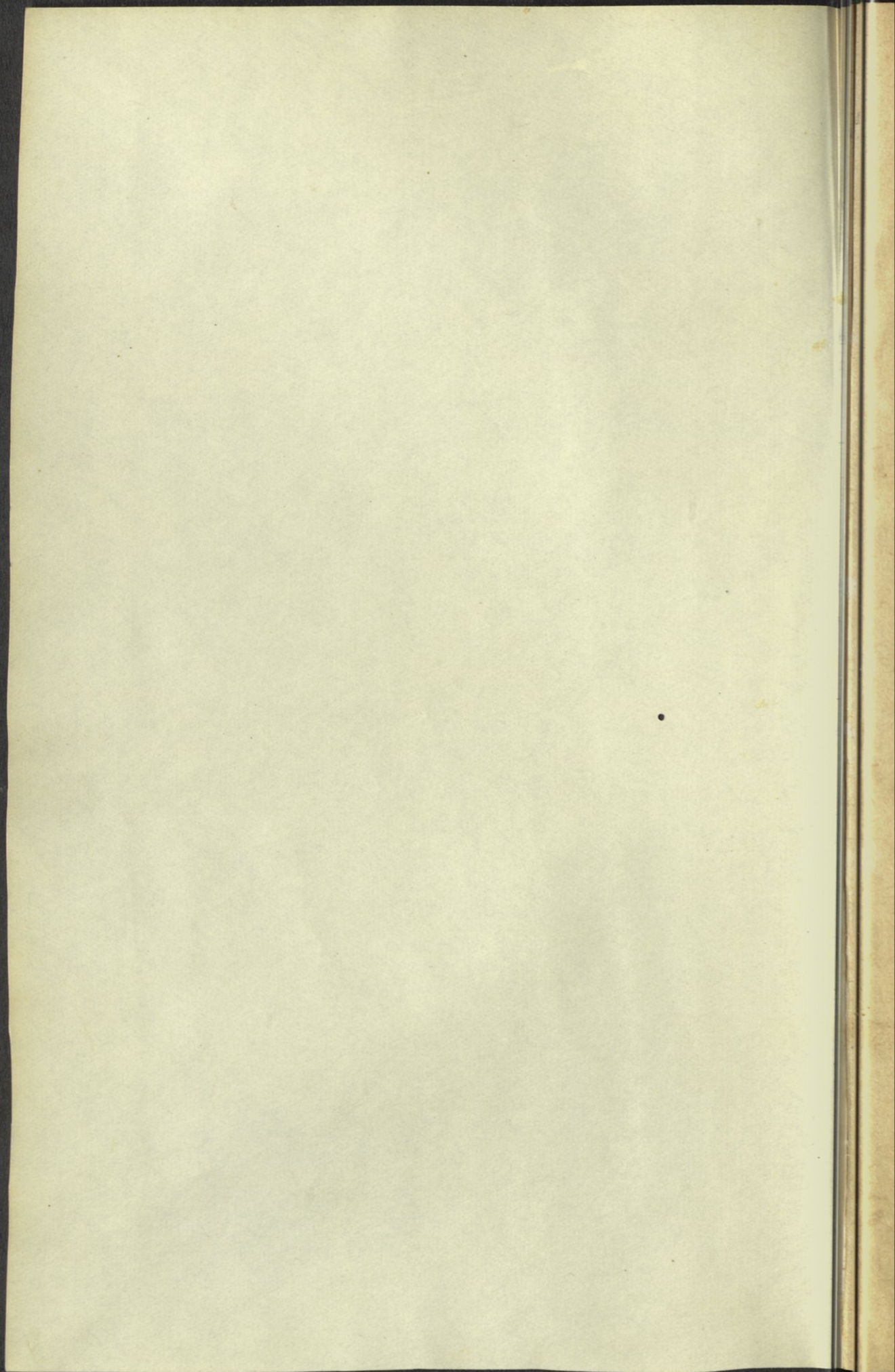
جولات في الشعر الغزلي

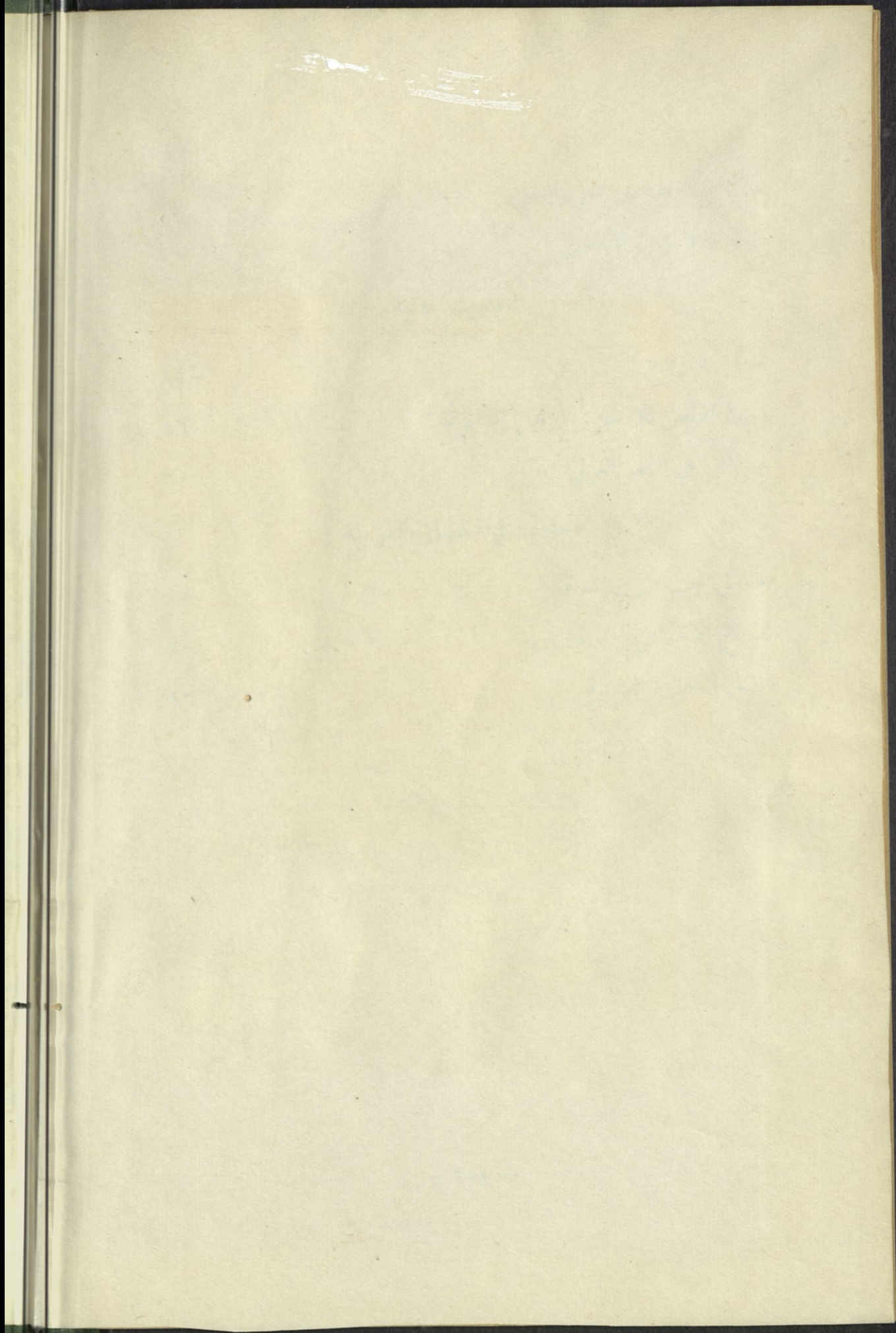
احاديث في الحضارة العربية

حقائق يجب ان تعرف

المورخ الاجتماعي ابن خلدون

انهيار الحضارة العربية





892.74:K11sA:c.1

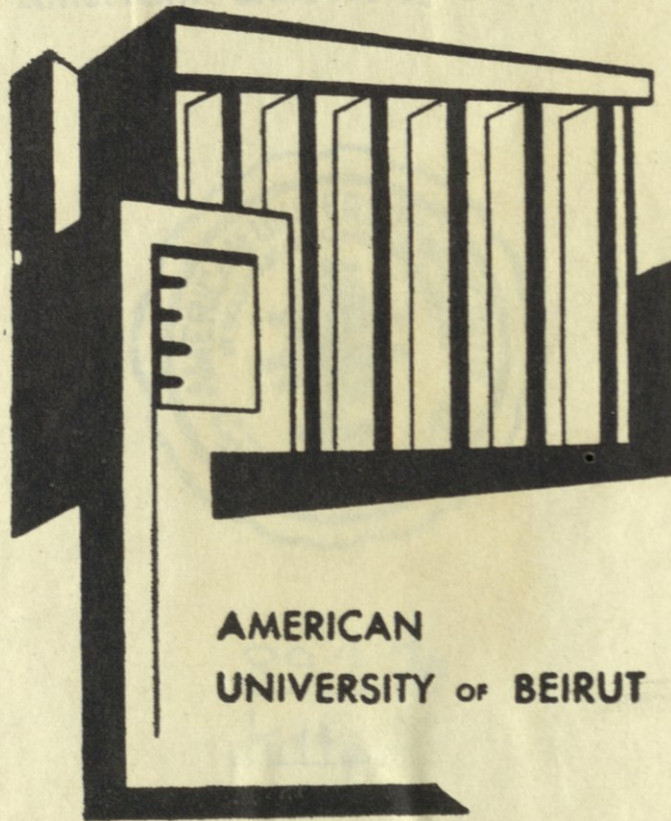
القاضي، طه محمد

احاديث الامسيات

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01038361



AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

